

حبيبتي بكماء

محمد السالم

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الطبعة الخامسة

حبيبتي

بكماء

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو 2013 م - 1434 هـ
الطبعة الثانية عشرة: نيسان/أبريل 2014 م - 1435 هـ

ردمك 978-614-01-0200-2

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

صورة الغلاف: عبير الوقيت

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

إهـــداء

إلى صديقٍ وفيٍّ

لم يتخلّى عني يوماً..

إلى الحزن.

There are a lot of snobs out there who disregard these books (romance novels), but they fulfil a need. I am happy and fulfilled in what I am doing and readers love them. And why not? They are harmless and they are fun." (1)

Sara Craven. (1)

تحتفل روايات الحب – في الغالبِ – بهزيمة الرجـل أمـام الأنثى، فلا شـيء في الحبِ أقوى من تسـلّطِ الأنثى. وحدها هي مَن تسـتطيعُ تمزيـق الرجـلِ وبعثرتـهِ، ثم تجمعهُ وتشـكلهُ مثلما تريد، أما هو فعليه أن يحبها فقط. تلك المخلوقةُ الناعمةُ التي تُدعى بالأنثى، تستطيعُ بابتسـامةٍ فقـط أن تجعل أذكـى وأقوى رجال الأرض يركـع علـى ركبتيهِ أمامهـا كقطِّ أليفٍ!

(1)

ها أنا أكتُب من جديد. ها أنا أسطِّرُ لكِ أنيناً من حنين. ها أنا أضعُكِ نقطةً على الحرفِ وأكتبُكِ كلمةً على السطرِ. ها أنا العاشقُ البسيط أدوِّن لكِ كلمات عشقٍ عظيمٍ، وأرسمُ لكِ فضاءً في مجرَّةِ الأدبِ بدونِ أدبي، وأفضحُ سرِّي بإرادتي، وأحفرُ قبراً يتَّسعُ لي في مقبرةِ كتاباتي وأوراقي.

معاركُ كثيرةٌ خُضتُها من أجلكِ، مُتحدياً قلمي ودفتري، فالكتابةُ فيكِ يا مُهلكتي لا تنصِفُها أبجديةُ الحروفِ، بل أحتاجُ للغةٍ جديدةٍ فريدةٍ مبتكرةٍ لتُكتبَ فيها خِصالُكِ ولتُرتَّلَ بها صفاتٌ ملائكيةٌ طاهرةٌ وجدتُها فيكِ... ولكنِّي لا أعرفُ كيف للكتابةِ طريقٌ آخر غير طريقِ الجنونِ، فلكِ اعتذاري يا حبيبتي حين تأبى الكتابةُ إتمامكِ ولا تقوى الكلماتُ على سردكِ.

أكتبُ وأمحي، وفي أغلبِ الأوقاتِ أكتُب وأبكي على حُبٍّ لكِ في قلبي وعشقًا لكِ فيَّ لا زلتُ أشعرُ بهِ هُنا في فؤادي، وعلى روحٍ تحتضرُ دونكِ مهما اجتمعت حولها أسبابُ السعادةِ التي تغبِطُها كلُّ الأرواحِ الأخرى.

عشراتُ الدفاترِ مُزِّقت، ومئاتُ الكلماتِ شُطِبت؛ لكي أجعل منكِ أميرة الحكايا وسيدة قصصِ الحبِ والرواية. فأنتِ أنثى تتوهُ

بكِ البداية، وتتشتّتُ بذكراكِ تفاصيلُ الحكاية.

أنتِ يا أُنثاي خُلقتِ من طينٍ كجميعِ الخلقِ، ولم تُرسَلي من السماءِ بسلسالٍ يميزُكِ عن البشرِ، ولكن هُناك شيءٌ آخر يُميزُكِ عن جميعِ نساءِ الكونِ، شيءٌ لم يرَهُ إنسانٌ قبلي، ولم يفقه فلسفتهُ ماردٌ كماردِ عشقي.

أنتِ يا أنثى الإثارة، يا مَن تميلُ لحُسنِكِ ألفُ رقبةٍ وقامةٍ، ويا مَن تتقِنُ فنون الغواية بدونِ قصدٍ أو إرادةٍ...، مَن يقوى على حُبِّكِ، ومَن يمتلِكُ الشجاعة لمقاومةِ ثورة خصركِ...، تقتحمين الصفوفَ بردفٍ يبعثُ الذهولَ في عيونِ الإناثِ قبل الرجالِ، وبلثامٍ يسترُ تضاريس وجهٍ يرسِلُ للسماءِ مئاتِ الأمنياتِ من قلوبِ نساءٍ ورجالٍ، فهُنَّ يحسدْنكِ على هذا القمرِ المرسومِ في محيطِ مُحياكِ، وهم يغبطون ذاك الرجلَ الذي يتمتَّعُ في الليلِ بتقبيلِ مُحيَّاكِ.

أنتِ أنثى غيرُ عاديةٍ، تضربين القلوب بقامتكِ القصيرة، وتعيدين ترتيب الكراسي على الطاولاتِ المستديرة؛ لتتوجَّه أنظارُ الجالسين إليكِ، ولتبهرين بشرقيَّتِكِ رجالَ الغربِ والشرقِ، وتتحدينِ بجمالِ عينيكِ جمال نساءِ الأندلُسِ وجنوبِ الأرضِ.

وما حديثي يا سيدتي يوفِّي وصفَ عينيكِ، فذلك السوادُ الطاغي على بؤرةِ عينكِ أشبهُ بالثقبِ الأسودِ في فضاءِ المجرَّة، يجذبُ كلَّ مَن حولهُ ويرميهِ في شقٍّ آخر للكونِ، بعيداً عن كلِّ فرضيَّات العلمِ، حيثُ لا يوجدُ... إلا أنتِ.

كُنتِ ولازلتِ سيدتي، سيدتي اللطيفةُ الجميلةُ التي تأسرُ قلبي

بخجلِها الكبير وبراءةِ التعابيرِ في وجهِها حين يحمى الغزلُ فيها.
تضيئين نجوماً في سمائي بابتسامةٍ يطيبُ بها السهرُ والسهوُ عن جميعِ الخلقِ، وتجعلين الحزن يلعنُكِ والهمَّ يشتُمُكِ حين تقتربين أكثر منِّي، وينجلي كلُّ حزني وهمِّي.

تجيدين رسمَ الحبِّ في عينيَّ حين أنظرُ إليكِ، وأرى كم هي جميلةٌ تلك العينان...، عيناكِ التي كانتا كلَّ أسباب حبِّي، وكانت الهاويةُ التي وقعتُ فيها في فخِّ الغرامِ. كُنتِ نبضة الحبِّ الأولى في قلبي، ابتسامة العشقِ الأولى على ثغري، والسيدة الأولى التي حطَّمت أبواب قلاع حبِّي الحصينة. ولازِلتُ لكِ ذلك العاشقُ المحرومُ منكِ ومن قُربكِ... ومن أبسطِ حقوقهِ بالعيشِ معكِ.

أربعُ سنين مرَّت، أربعُ سنين عِشتُها في ألمٍ وحزنٍ وشقاءٍ، أربعُ سنين يا حبيبتي منذُ أن رحلتِ، ومنذُ أن عشعشت عَناكِبُ الحزُنِ في وسطِ صدري. كيف لكِ يا طيبةَ القلبِ أن ترحلي هكذا؟!، دون وداعٍ على أرصفةِ القطاراتِ الراحلةِ إلى أراضي الغياب، دون تذكرةِ عودةٍ إلى وطنٍ يحتاجُ إيمانكِ ووفائكِ لحدودهِ التي سُلِبتَ منها غيومُ السعادة وأمطارُ الفرحِ، وشمسُ الحبِّ حين رحلتِ، وأظلمتْ سماؤهُ بالسُحبِ السوداء التي تبرُقُ بالخوفِ والهلعِ في كلِّ لحظةٍ ينبضُ بها قلبهُ بحبٍّ جديدٍ، فهو من بعدكِ باتَ يخافُ كلَّ نبضاتِ الحبِّ، يخافُ التورُّط بحكايةٍ أخرى لا تمحي من وجدانهِ حكايتكِ...، فأنتِ قصةٌ خياليةٌ لا تتكرر أبداً ولن تُرى حتى في أجملِ الأحلامِ!.

رحلتِ يا سيدتي دون أن أسمع صوت خطواتكِ نحو بابِ

الغيابِ، دون أن أسمع صوت بابِ الحبِّ يُغلَق، دون أن أرى حقائب تُجمَعُ وتُرسَل، ودون أن تضعي لي رسالةً على طاولةِ المطبخ!، ونسيتِ في ليلةِ الرحيلِ أن تضعي لي مفتاحاً آخر.. لبابِ العودةِ الكبرى.!

أشعرُ بأنّني في غيبوبةٍ لا يفكّرُ عقلي فيها إلا بكِ، لا أريدُ الإفاقة منها، ولا أسعى للاستيقاظِ منها! فما تعني الحياةُ لي شيئاً الآن، وما الحياةُ شيئاً إن لم أكُن في أحضانكِ الآن!

الغيبوبةُ يا حبيبتي نعمةٌ من الله حين يهبُها مَن تُسلَبُ منهُ سعادتهُ تحتَ مسمّى يُدعى عادات مجتمعٍ وتقاليده!، حين يكون الواقعُ مخيِّباً لآمالهِ، وحين تكونُ الأحلامُ أجمل وأرقّ على قلبهِ الحزين.!

أشعرُ بأنّي غريبٌ على هذهِ الأرض رغم أنّي تربَّيتُ على ترابِها، أشعرُ أنّي عابرُ سبيلٍ مرَّ على هذهِ الواحة، رغم أنّي تسلَّقتُ كثيراً نخلها...، أشعرُ بأنّي لا أعرفُ مَن أنا حين أكتبُ لكِ فأتوهُ بأساليبِ الكتابةِ وتراوغُني الحروفُ والكلمات.

لطالما كُنتِ السبب الوحيد للكتابة، وحدكِ مَن علمتني كيف أروِّض كلماتي، حينما كانت الكتابةُ طريقاً جميلاً نتخِذُهُ لنطلق ما لم تقدرْ على بوحهِ ألسِنتُنا.!

أمشي وحيداً على هذا الطريق الطويلِ الحزين، وأكادُ أموت حزناً من همٍّ توحَّدَ بيّ! رحلتِ أنتِ ولن تنفعَني كلُّ محاولاتي البائسة في استردادِ حقّي بكِ، رحلتِ ولم أجد خيطاً يعيدُني لطريقكِ...، رحلتِ دون أن تقولي «إلى اللقاء»، أو حتى

«الوداع»...، ألا تعرفين أني رجلٌ شرقيٌّ؟، يموتُ قهراً حين تُسلبُ منهُ أحلامهُ ويثورُ غضباً حين يحالُ بينهُ وبين رغباتهِ!، ألا تعرفين أنّي رجلٌ عربيٌّ؟! إن عشقَ... أدمن، وإن أدمن... تورَّط، وإن تورَّط... تمرَّد، وإن تمرَّد... تمرَّد!!.

لن أيأس عن طموحي، ما دام الهواء ينفخُ رئتيَّ.قطعنا وعوداً كثيرةً معاً وأطلقنا في السماءِ أمنياتٍ كثيرةً وعميقةً سوياً، ورتَّلنا في آخرِ الليلِ دُعاءً طاهراً عذباً متبادلاً...

ولكن تغيَّر كلُّ شيءٍ الآن...، وعودُنا كانتَ غباءً، وأمنياتُنا راحت هدراً وجفاءً...

ولكنِّي لازِلتُ أدعو لكِ ربي بأن يُضحِكَ شفتيكِ دائماً، وأن يكون معكِ في أيِّ مكانٍ كُنتِ، وفي أيِّ مكانٍ تختبئين فيهِ... عنِّي.!

أتساءلُ أحياناً... أكُنتِ تُحبينني أكثرَ، أم أحببتُكِ أكثرُ؟...

أتساءل وأنا لا أبحثُ عن جوابٍ، فلو أنكِ أحببتني كما أحببتُكِ، لما كان سؤالي بهذهِ الصغية، صيغة الماضي الذي لاأزالُ أعيشُ على ذكراه، ولاأزالُ أتنفسُ عبيرهُ رغم قسوةِ حاضري وضياعِ سعادةِ مستقبلي دونكِ.

أُناقِضُ نفسي حينما أكتبُ لكِ، كتناقضِ العشقِ والكراهيةِ، ولكنَّني لا أكرهُكِ أنتِ، بل أكرهُ غيابكِ ورحيلكِ عن عشقي...، حين ابتعدتِ دون سابقِ إنذارٍ، ودون أن تأخذي منِّي كلَّ تذكارٍ يفتحُ للحنينِ أبواباً ترهِقُني دونكِ، وتألَّمُ قلبي الذي يتأمَّلُ رجوعكِ كشعاعٍ لشمسِ نهارِ العيدِ أو كقائدةٍ لعودةِ الطيورِ المهاجرةِ من

وطنِ الشتاء، أو حتى كمطرٍ يهطلُ فوق الأبواب.

ليتـكِ مُـتِ! ليتـكِ في قبرٍ وضعـتِ، لأصبحت الذكرى أهونُ على عقلي، ولطمأنيتُ بأنَّكِ رحلتي لربٍّ أكرم منِّي، ويحبُكِ أكثر بكثيـرٍ منـي... ولهـانَ غيابـكِ على قلبي وقُلتُ لـهُ: بأنَّكِ هناك في سـابعِ سـماءٍ وفي فردوسٍ أطهر من هذهِ الأرض الفانية، تنتظرين قدومي وتعدِّين منزلنا وتحذِّرين الحواري بأن لا يقربنَ منِّي؛ لأنَّكِ ستكونين حوريتي في هذا الفردوسِ العظيمِ، حين لا تستطعين أن تكونـي أمّـاً لطفلتي، وزوجةً هي أولـى زوجاتي في الدنيا، وعينيها ثانيهنَّ، وشـفتيها الزوجةُ الثالثةُ التي أتزوجُها غصباً عنكِ، ونهديها رابِـعُ زوجاتـي وألذُهـنّ جميعًـا!، وأنـكِ سـتفعلين بـيّ كلَّ مـا لم تقدري على فعلهِ خجلاً وخوفاً من ربِّكِ الذي أحسـن خُلُقكِ...، لكان الموت أهونُ من كلِّ خيالٍ يرسمكِ أمامي في حضنِ رجالٍ آخرين...

* * *

كان سـهلًا عليـكِ أن ترحلـي، وكان صعبـاً علـيَّ الـزواجُ من غيـركِ، رغـم إلحـاحِ أمي العظيـم وشـغفها لرؤيةِ حفيدِهـا الأول، وولعهـا بجمـالِ ابنـةِ صديقتها التـي تقضي وقتها معها في الحديثِ عن نساءِ الحيِّ، وأكلِ لحومهنّ دون شفقةٍ تذكرُ، وبتلذُذٍ ممتعٍ مع كلِّ كلمةٍ ينطِقنَها فتقطَّعُ بين شِفاهنّ لحومُ تلك النساءِ.

أمي تلك المتعلمة التي تتباهى دائماً بشـهادتها الجامعية أمام صديقاتِهـا، والتـي لـم يُكتب لفتياتِ جيلهـا الحصولُ عليها، حيث نالتَها بامتيازٍ وتفوّقٍ على كلِّ قريناتها، نسيتَ ما تعلمتهُ في تخصصٍ

شهادتِها الدينية، بأنَّ الدين لا يفرِّقُ بين كلِّ البشر، فالأسودُ والأبيضُ على مقامٍ واحدٍ، لا يفضلُ أحدُهما على الآخر إلا بتقوى قلوبهم ويقربهم من ربهم... نسيت كلَّ هذا حينما توجَّهتُ إليها بخجلٍ كبيرٍ وخوفٍ عظيمٍ من ردّةِ فعلها تجاه طلبي الذي وقع كالفأسِ على رأسِها، فأرداها قتيلةَ الأمل بيَّ.!

- أمي، أريدُ التحدُّث معكِ بشأنِ موضوعٍ يخصُّني.

أجابت بنبرةٍ خائفةٍ؛ لأنها تعرفُ أني عندما أطلبُ الحديث معها فإن هناكَ أمراً مهماً جداً: - تعال واجلس بجانبي... نعم يا ولدي، قل لي ما هو موضوعك الخاص؟

وبعد أن صمتتُ لعدّةِ ثواني أحاولُ جمع عباراتي، وأختيار الجملة المناسبة لهكذا حديث...

- أمي لطالما أردتِ أن تريني عريساً مرتدياً ذاك «البشت» الأسود الطويل، وتلك الغترة البيضاء...

وبفرحٍ قاطعت حديثي: نعم يا حبيبي، إنهُ يومُ سعدي وفرحي حين أراك عريساً تمشي بين الوردِ ويديك تعانِقُ يدي زوجتك، ويومُ المنى هو يوم ولادةِ طفلك الأول، حين أحملهُ بين يديّ وأرى وجهك الصغير في ملامحهِ مرةً أخرى ...

بنشوةٍ أكملتُ حديثي: إذاً نحن متفقانِ على موضوعِ زواجي؟

وتردُّ أمي: نعم يا بُنيَّ، بالتأكيد سأكون فرحةً بهذهِ الرغبة، فأنت الآن في سنِّ التاسعةِ والعشرين وكلُّ أبناءِ عمومتكَ تزوجوا وسبقوكَ رغم أنهم أصغرُ سناً منك.

- إذًا لنتحدَّث الآن عن الزوجة، يا أمي أنا..

تقاطِعُني سريعاً وتقول لي:زوجتُكَ عندي لا تقلق من هذهِ الناحية... ابنةُ صديقتي «أم راشد»، فيها من الجمالِ ما يسرُّ عينيكِ، لها شعرٌ أسودٌ طويلٌ كشعرِ الفرسِ، وعينيها جميلتانِ كجمالِ عيونِ فتياتِ البدوِ....

– ولكن يا أميِّ ما أريدهُ

بضحكةٍ حماسيةٍ تقاطعُني مجدداً: أعلمُ أعلمُ ما تريدهُ، اسمعني يا بنيَّ، أنا أعرِفُ كيف يفكرُ الرجالُ...، إن كنت تريدُ جسداً جميلاً ففيها ما يسعدُك، فهي ذاتُ جسدٍ ممتلئٍ وجذّاب، كالفرسِ مثلما قلتُ لك سابقاً...

لا لم أكن أقصدُ ذلك يا أمي، فأنا أريدُ الزواج بفتاةٍ أجدُ بيني وبينها العديد من الخِصالِ المشتركة، وأحِبُ فيها أخلاقها قبل جسدِها، فالجسدُ يا أمي سيترهَّلُ يوماً ما، ولكنَّ خُلُقُها هو مَن سيبقى طوال العمرِ.

فتجيبُ على حديثي أمي التي تحاوِلُ بشتى الطرقِ أن تجعلني أرضى باختيارِها لي: أووه يا ولدي، هي على خُلقٍ عظيم، ودائماً ترافِقُ أُمَّها في كلِ زيارتِها، فتجذبُ أنظار جميع النساءِ، وأظنُ أنَّ العديد من نساءِ الحي يردنّ خطبتها لأبنائِهنّ، وبالمناسبة قد أكملت دراستها الجامعية قبل سنةٍ، وتنتظرُ الآن قرار توظِيفها كمعلمةٍ في إحدى المدارسِ الابتدائية.

– أمي أرجوكِ افهميني...

أنت الذي عليكَ أن تفهمني، فأنا أعرفُ أكثر منك في أمورِ النساءِ، فقط قل أنّك موافقٌ مبدئياً عليها، وأعدُكَ أنك ستُقَبِّلُ رأسي

شاكراً حين تراها في ليلةِ النظرةِ الشرعية.

ينفـذُ صبـري واحتمالي على حديثِ أمي التي تريدُ هذهِ الفتاة زوجةً لي بإصرارٍ يُملُّ مَن كان في قلبهِ عشقاً لفتاةٍ أخرى...

- أمي، أحِبُ فتاةً أخرى، وأريدُ الزواج بها..

تندهِشُ أمي من كلامي وتبلعُ ريقها بغصَّةٍ ثم تقولُ لي:تُحِبُ فتاةً أخرى؟!... مَن هي؟!.. ومنذُ متى وأنت تُحبُها؟!

- نعم كما قلتُ لكِ يا أمي العزيزة، أُحِبُّ فتاةً أخرى وحبي لهـا كبيرٌ جـداً، وقـد التقيتُ بها قبل سـنتينِ حيـن انتقلنا من مدينة الخبرِ إلى الرياض.

- قل لي مَن تكون؟

- إحدى بنات عمِّي.

- بناتُ عمِّك؟!

وبعد تفكيرٍ عميقٍ وسريع وعينيها تُحدِّقُ في السقفِ:

- ابنةُ عمِّك خالد، مُنى؟ ولكن هي تصغرُك بسبعةِ سنين!

- لا ليس هي يا أمي..

- إذاً إبنةُ عمِّك عبد العزيز... ليلى؟، فلم يتبقَّ من بناتِ أعمامِك العازبات إلا ليلى ومنى!

- وأيضاً ليست هي مَن أُحِبُّ، ما بالُكِ يا أمي نسيتِ إحداهُنَّ!

تحتـارُ أمـي بالتخميـنِ وفجاةً تصـرخُ وتتحدَّثُ بسـرعةٍ كبيرةٍ لا أسـتطيعُ من خلالها أن أفهم ما تقولُ: حنيـــــــــن!!!!!، هل فقدت عقلك؟ هل جُنِنت؟ تريدُ أن تتزوّج هذهِ المريضة، تريدُ أن تقهُر قلبي حين أرى أطفالكَ مِثلها، لطالما استغربتُ من سـؤالِك

عنها، ولكن لم يخطر ببالي أنك قد تجنُّ وتُحِبُّها.!

وتفشلُ كلُّ محاولاتي في التخفيفِ من روعِها، ويحمى جمرُ الغضبِ في لسانِ أمي وتقول: أنصت إلي جيداً، والله ثم والله يا هتان لن أسمح لك بالزواجِ من هذهِ المريضة وأنا على قيدِ الحياة، إن أردتني أن أموت قهراً فاذهب وتزوجها واخرجُ عن أمري، لن أسمح لكَ أبداً أن تعيش في بيتٍ لا يُسمعُ فيهِ إلا صوتُك، ولن أسمح لك بأن تُعذِّب أبناءك حين يولدون بلا صوتٍ يُسمعُ، ولن أرضى عليك حتى بعد موتي إن تزوجتها، وسأقولُ لربي في يومِ الحشرِ: أنَّك خرجت عن شوري وعصيتني، وأني لستُ براضيةٍ عنك...، لعن اللهُ حُبَّكَ هذا، تُحِبُّ... بكماء.!

* * *

على الطاولةِ أجلسُ وحدي، صفحاتٌ قليلةٌ بجانبي أراها تغيِّرُ شكل طاولتي، قلمٌ و ممحاةٌ وورق، أحكي بهم تفاصيل حزني الذي بات صديقي الوحيد. قلمي لا يملُّ من تحريضي على الكتابةِ، ينفثُ الحبر دون هوادةٍ، وورقي يغويني على إسقاطِ ثقلِ الحزنِ الأسودِ على مساحاتِهِ البيضاء، وأمّا ممحاتي فلا أجدُ لها فائدةً تُذكرُ، سوى آنها تذكرُني بأنَّ الأخطاء ورادةٌ في كلِّ الأحيانِ، كخطأ تعلُّقي بكِ إلى الآن، وإلى غدٍ، وإلى أن أقِف بين يدي ربي وأتضرعَ لهُ بأن يجزيني على هذا الحزنِ الذي أهلكني في حياتي، وأن يجعلَكِ خير جزاءٍ لصبري على حُزني.

أحِنُّ إليكِ كثيراً يا حنيني، أحنُّ لكلِّ تفاصيلكِ الصغيرة غيرِ المسموعة، ولكلِّ الكلماتِ التي كُنتِ تجاهدين نفسَكِ على نُطقِها؛

لتسعدي قلبي بسماعِها حينما صِرتُ أنا صوتكِ...، وأفتقدُ إشاراتكِ إلـى قلبـكِ حيـن أقولُ لكِ أحبُّكِ، فلا تجدين طريقةً لتقولي: «وأنا أحبُّـكَ أيضـاً يـا حبيبي»، إلا بوضعِ إصبعَـكِ بين نهديكِ لتبيِّني لي أنَّني هُنا في فؤادكِ.

* * *

(2)

لازالـت الذكـرى تُحلِّـقُ كنسـرٍ جائـعٍ في رأسـي، يبحثُ عن فريسةٍ يُشبعُ بها بطنهُ الصغير، ولكنَّهُ لن يرضى إلا باصطيادِ أرنبِ سـمينٍ!، وتباً للنسـرِ الذي يحومُ في رأسـي، لن يرضى بغيرِ دمعي كأرنبٍ مناسبٍ لوجبةِ غدائهِ!.

* * *

قبـل نحـوِ خمـسِ سـنواتٍ مـن الآن، عاد أبي فرِحـاً للمنزلِ، يحملُ معهُ بشـرى وأخباراً سـارّةً. اجتمعنا كُلُّنا على طاولةِ الغداءِ ننتظِـرُ هـذهِ البشـرى بفـارغِ الصبـرِ، وبينمـا كان أبـي يـأكلُ اعتلت الابتسـامة على وجهه، زاد الفضولُ في عقولنا؛ لمعرفةِ خبايا هذهِ الابتسامة الجميلة.

انتهى أبي من القضاءِ على فخذِ الدجاجةِ التي ذُبحتَ؛ لنتلذّذ بلحمِها ورفع رأسهُ كمنتصرٍ في الحربِ وقال لنا:

لدي أخبارٌ سارَّة يا بُني ويا بناتي... جاءتني ترقيةٌ جديدةٌ في العملِ، ولكن لأحصُل عليها يجِبُ علينا الانتقال لمدينةٍ أخرى.!

ويصوتٍ واحدٍ أجبنا:الريـــــــــاض!

وكانت ضحكته وابتسـامته كفيلةً بإدخالِ السـرورِ على قلوبنا للحدِّ الذي يجعلُني أعدُّ حقائبي في نفسِ السـاعة، فلطالما تمنيتُ

وأختـيَّ الصغيرتيـن العـودة للريـاض، بعدمـا انتقلنا منهـا من أجل ترقيـاتِ أبـي الكثيـرة، والتـي تجعلهُ يتنقلُ بنا مـن مدينةٍ إلى مدينة دون أن يبالـي بنـا وبعلاقاتنـا مـع الأصدقاء التي سـرعان ما يقتلُها الرحيل لبلدةٍ أخرى، ليبدأ معها مسلسلُ تكوين العلاقاتِ والتعرفُ على أصدقاءٍ جدد.

ولكن هذهِ المرَّة نحنُ عائدون إلى الرياضِ بعد خمس سنواتٍ من الغيابِ عن سـمائها الزرقاء وعن ضجيج السـياراتِ وتكدُّسـها في شوارعها الطويلة...، عائدون لنُعانقَ وشاح جدتي الكبير الذي تفـوحُ منـهُ رائحةُ البخورِ الأصيلة، ونسـمةٌ مـن عليلِ الجنةِ الزكية، ولنتعم بأحاديثها الطاهرة الطيبة التي تكادُ تسمعُ فيها اسم الله في كلِّ جملةٍ وبعدَ كلِّ عبارة.

ولـم أكـن أدري -وأنـا أُعِـدُ حقائبي- بأنني راحِـلٌ لمصائبِ الحبِّ، ولقممِ جبالِ العشقِ، فالحبُّ يا حبيبتي مصيبةٌ جميلةٌ، تأتي مـن غيـرِ موعـدٍ ومن دون اسـتئذانٍ، تقتحمُ أبـواب القلـبِ؛ لتصيبهُ بتعويـذةٍ رقيقـةٍ تجعـلُ هـذا القلـب ينبـضُ لهـذا الحبِّ كمسـحورٍ يتلاعـبُ بـهِ، والعشـقُ يا عشـيقتي كالجبـالِ العاليـة، يقرِّبُنا للنجومِ والغيـوم، يجعلُنا نطيرُ في سـماءِ الهذيـانِ كطيورٍ جميلةِ الجناحينِ، ويسافرُ بنا نحو قمرِ الغرام وشمسِ الهيام.

ولـم أكـن أدري بأننـي سـأُحلِّقُ بِحُبِّـكِ عالياً... عاليـاً...، ثم سأسقط مغشيّاً على وجهي، ومغشيّاً على قلبي!

وعلـى عتبـةِ بابِ منزلِ جدَّتي، كان اللقاءُ الأولُ حاضراً بيننا، وكانت نظرةُ الإعجابِ الأولى واضحةً في أعيننا، وكان صدى نبضةِ

العشقِ الأولى يُسمعُ في أرجاءِ صدورنا، حينما طرقتِ باب المنزلِ واتجهـتُ لأجيـبَ على الصوت، ففتحتُ الباب لأجدكِ حاملةً باقةً من الوردِ وكأنكِ وردةٌ تحملُ ورداً، أو ملاكٌ نزل من السماءِ وفي يديهِ ورودٌ من الجنة...

يـاه كيـف لعتبةِ هذا البـاب أن تُدخلَنا في حدودِ خُرافةٍ تُدعى الحُـبّ مـن أولِ نظـرةٍ!، وأنا مَن كنـت أضحكُ كثيراً على صديقي خالد، حينما أتى ليحكي لي عن تلكَ الفتاة التي قابلها صُدفةً في أحـدِ المطاعـمِ، وراق له جمـالُ عينيها، فجاءني يحملُ فوق أكتافهِ جبـالاً مـن الحـزنِ؛ لأنَّه لم يستطع أن يقترب أكثـر منها، ويخبرُها بأنَّهُ أحبَّها من أولِ نظرةٍ!.

تلـك الخرافـة قـد آمنتُ بها حينما رأيتُ عينيكِ اللتينِ تُشـبها نجمتان معلقتان في وشـاح السـماء، أو كشـمسٍ مُشـرقةٍ في فضاءٍ أبيضٍ طاهرٍ، وذاك اللثامُ الذي يُخفي ما تبقى من وجنَتَيكِ فيزيدُكِ طهارةً على طهارةٍ.

كُنـتِ تقفيـن بخجـلٍ كبيـرٍ يظهـر فـي عينيـكِ دون أن تقولي أيَّ كلمةٍ أو تسـألي عن أيِّ أحدٍ يسـكنُ في هذا المنزلِ...، وبعدَ صدمتـي مـن حُسـنِ عينيكِ، وارتباكي مـن وقوفكِ على البابِ جاءَ صوتُ أمي منادياً لي من الخلفِ: هتان... مَن على الباب؟

بارتبـاكٍ أجبتُهـا:لا أعلـم، ولكن هناك امـرأةٌ تقفُ عند الباب، تعالي وتحدَّثي معها.

فاقتربـت أمّـي مـن البابِ؛ لترى تلك الغريبة التي تقفُ هناك. حينهـا ابتعـدتُ وهممتُ بالدخولِ إلى المنزلِ، وبعد لحظاتٍ قليلةٍ

دخلت أمي وقالتَ لي:هتان، اذهب واجلس في الطابقِ العلوي، جاءتنا ضيفةٌ عزيزةٌ.

حبستُ فضولي في داخلي واتجهتُ للطابقِ العلوي، وأنا أحاولُ استراق السمعِ؛ لأعرف مَن تكون صَاحبةُ العينين الجميلتينِ، لكنَّ صوتَ التلفازِ كان كفيلًا بتشتيتِ سمعي، حتى رأيتُ أختي جُمانة ذاهِبةً لغُرفتِها التي تتشارُكها مع عمَّتي بعدما أتينا فجأةً للرياض، واضطررنا للمكوثِ في بيتِ جدتي، أوقفتُها وسألتُها عن تلك التي راقَ لقلبي جمالُ عينيها.

- جُمانة، مَن لدينا؟

- هذهِ حنين

- حنين؟! ومَن تكون هي؟

- ألم تعرفها؟ إنها ابنةُ عمِّي... البكماء! هل نسيتها؟

توجّهت جُمانة لغرفتها، وتركتني أُصارعُ أفكاري وذكرياتي التي جمعتني بكِ في طفولتنا البريئة.

وبدأتُ أذكرُ كيف كُنتِ تجلسين حزينةً بجانبِ أمِّكِ، في الوقتِ الذي نلعبُ فيهِ جميعُنا في فناءِ منزلِ جدتي، كُنتِ تحزنين من عدمِ قدرتكِ على التحدُّثِ معنا، ومن مضايقاتِ أبناءِ عمِّي لكِ، عندما يحاولون جعلكِ تردّدين الكلماتِ خلفهم، ويظنون أنّهم مَن سيجعلُونكِ تتحدَّثين، وكيف كُنتِ تبتسمين، وأنتِ تسمعين غناء الفتياتِ الصغيراتِ دون أن تستطيعي مشاركتهنَّ الغناءَ، ولازلتُ أذكرُ أيضاً دميتَكِ الصغيرة التي تأخذينها معكِ إلى كلِّ مكانٍ

تذهبيـن إليـه، فوجدهـا مَن تسـتطيعُ سـماعَ صوتـكِ، ووجدها مَن تستطعين التحدُّثَ معها دون الحاجةِ لصوتٍ مسموعٍ!.

وأذكرُ كيف جئتِ راكضةً نحونا تريدين أن تخبرينا عن جُمانة حينما كانت تتألّمُ من وقوعِها من على الدراجةِ، ولكنَّكِ لم تستطيعي أن تحكي لنا ما جرى، واكتفيتِ بجذبي معكِ لأرى جُمانة مستلقيةً في الفناءِ، ياه... يا حنين جمعتنا ذكرياتٌ كثيرةٌ في الصغرِ، ولكنّي لم أستطع التعرُّف عليكِ حينما كبُرنا وتغيَّرت مع نضوجنا ملامحُنا..

ورُحـتُ أتسـائلُ أيضـاً، هـل تذكرتيني؟ أم أننـي تغيّرتُ كثيراً ولم تعرفيني؟، فشعري لم يعد طويلًا وناعماً كما كان في الصغرِ، جعَّدتهُ سنينُ المراهقةِ وبعثرتهُ طوابيرُ العملِ، ووجهي اسمرَّ وطفيءَ نورهُ بعدما كان يشـعُّ بالبراءةِ وتتزاحمُ فيهِ خدودي، وتلك الشـامةُ التي تميّزُ رقبتي عن كلِّ الرقابِ، اختفت وراء شُعيراتِ لحيتي، يا ترى عرفتي مَن أكون؟ أم أنَّكِ نسيتي كما نسيتُ؟.

لقـد أخذنـي التفكيـرُ إلـى ذكريـاتٍ عميقةٍ جمعتنـا، ولم أكن أدري أنَّ هنـاك ذكريـاتٌ جديـدةٌ سـتجمعُنا مجـدداً ثـم ستقسِـمُنا لنصفينِ حزينينِ.

قطـع حبـل ذكرياتي صوتُ جدتي التي كان تودعُكِ، فهممتُ بالنزولِ بعدما سمعتُ صوت الباب يُغلق، ووجدتُ جدتي لاتزالُ تدعي لكِ بالخيرِ وبالنصيبِ الذي بات يزعجُها تأخرهُ عليكِ، وأنتِ على مشارفِ العامِ السادسِ والعشرين من ولادتكِ.

جلستُ بجانبها وقطعت دعائها بلطفٍ.

– جدتي، أعطِنا القليلَ من هذهِ الدعوات الطيبة... ابتسمت

والتفت إليَّ...

– يا هتان، دعني أدعو لهذهِ المسكينة التي ينفطرُ قلبي كلَّما رأيتُها.

– سلامةُ قلبكِ يا أمّي الكبيرة من كلِّ شرٍّ...، لكن مَن هذهِ المسكينة التي تدعين لها بالخيرِ يا جدّة؟

– إنَّها حنين ابنةُ عمّك، للتوّ كانت هنا، وقد جاءت لتتحمَّد لكم بالسلامةِ بعد عودتكم للرياض.

– إذًا لماذا ينفطرُ قلبُكِ عليها؟

وبعد زفيرٍ خرج من صدرِ جدتي، وهو يحملُ زخاتٍ من الهمِّ قالت: هل تصدق يا هتان أنَّ أجمل بنات أبنائي لم تتزوج بعد؟، والصغيراتُ منهنَّ تزوجنَ وأنجبنَ، ولكن هذهِ المسكينة لازالت تنتظرُ نصيبها الذي تأخَّر بسبب قدرِ اللهِ الذي جعلها بكماء.

وبعدما رأيتُ الحزن بدأ يظهرُ في نبرةِ كلامِ جدّتي حاولتُ تغير مجرى الحديثِ، وقلتُ لها بمكرٍ: لا تبالغي يا جدّة، لا أظنُّ أنَّها أجملُ منكِ..

أجابت وهي تبتسمُ: والله يا هتان أنَّ فيها ما يجعلُها أجمل من جدّتِكَ ومن جميعِ نساءِ الحيِّ، تخيَّل ذات يومٍ كانت تجلسُ عندي في الوقتِ الذي زارتني فيهِ إحدى الصديقات، ولأنَّ حنين تخجلُ من نظراتِ النساءِ لها حملت نفسها وهمَّت بالرحيلِ، وما إن ذهبت حتى سألتني صديقتي عنها وقالت لي: أنها أُعجِبتَ بجمالها وأنها تبحثُ عن زوجةٍ لابنها، ولكن ما إن قلتُ لها أنّها بكماء ولا تستطيعُ النطق حتى تناستَ أنَّها كانت تتحدَّثُ في موضوعِ الزواج،

وبدأت تتطرّقُ لأحاديث أخرى، يا حسـرتي على ابنتي، عيبُها هذا يلغي كلَّ ما فيها من جمالٍ وخُلقٍ في أعينِ الناسِ

أنهيـتُ حديثـي مع جدتي بدعائنا سـويّاً لـكِ بالخيرِ يا حنيني قبل أن أخرج لصديقي خالد الذي كان ينتظرُني في الخارجِ

خالـدٌ ذاك الصديـقُ الـذي عشـتُ معـه مراحـل الطفولـةِ فـي المدرسـة والذي لـم ينسـاني يوماً رغم بُعدي عنه لسـنواتٍ طويلةٍ، أختلـفُ عنـهُ كثيـراً فهـو يمتلـكُ جرأةً لم أعـرف مثلها من قبل، لا يجامـلُ أحـداً، ويدَّعـي أنّـه صـادقٌ مـع الجميعِ؛ ولذلـك لا يحبُّ المجاملات، ويمتلكُ أفكاراً منحرفةً عندما يتعلقُّ الأمرُ بالفتياتِ...،

فهاتفـهُ المحمـول يـكادُ يُغمى عليـهِ من كثرة أرقامِ النسـاءِ اللواتي يتحدَّثُ معهنَّ بلا أدبٍ أو حياءٍ، يسجلُ أرقامهُنَّ تحت اسمٍ واحدٍ!، فكلُّهنّ يتشـاركن اسـم «الحبِّ»، ولكن يختلفن بالرقمِ الذي يتلي «الحبَّ»، سـألتهُ مرّةً: ألا تنسـى أسـمائهنَّ؟ فأجاب سـاخراً: أنا لا أنسـى نسـائي!، فالحبُّ رقمُ واحدةٍ تُدعى عهود، وأروى هي رقمُ اثنان، وهكذا إلى أن أصل إلى الرقمِ أربعة، وإن سألتهُ لماذا أربعةٌ بالتحديد؟ أجاب: لأنَّ الشرع حلَّل لي أربعةَ نساءٍ.!

والمعضلة أنّهُ لا يتمسَّكُ بهؤلاء الأربعة فقط، بل إنَّهُ يبدلهنّ متـى مـا انتهـت رغبتهُ وشـهوتهُ بهنّ! وكأنّه يُطلّـقُ إحداهن ويبدّلُها بأخرى جديدةٍ! هذا غير الفتياتِ اللواتي يقابلهُنّ في سفرهِ، وتنتهي متعتهُ معهنَّ بالجلوسِ على مقعدِ الطائرةِ المتجهةِ نحو الوطن.!

لا أعلـمُ لـمَ أحبُّـهُ، ولكنّـي لم أجد صديقاً آخـر أتحدَّثُ معهُ بشـفافيةٍ غيـرهُ، وذات مـرَّةٍ خرجـتُ معـه وقصِدنـا أحـد المقاهـي

المنتشـرةِ في أرجاءِ الرياض، وهناك تحدَّثتُ معه عنكِ يا حبيبتي، فمنذُ أن رأيتُكِ لم أستطع أن أُخرجَكِ من عقلي.

بدأ خالدٌ الحديث باستعراضِ ذكرياتهِ مع النواعمِ كما يفعلُ ويحبُّ أن يتحدث عنهنَّ دائماً، فألقيتُ عليهِ سؤالاً أزعجهُ وأقلقهُ:

حسـنًا يـا صديقي، تقـولُ: إنَّكَ تُحبُّ الفتياتِ بشـتَّى هيئاتهنّ وعيوبهنّ، ولكن قل لي يا خالد ماذا لو أُعجبتَ بفتاةٍ بكماء.!

– بكماء!

– نعم بكماءٌ جميلةٌ وفيها كلُّ ما تتمنى تقبيلهُ!

– أمــــمــــم، لا أظنُّ أنني قد أُعجَب بفتاةٍ مثلِها!

– لنفترض ذلك يا صديقي..

وفي محاولةٍ للهروبِ من الإجابةِ.. قال: لا أحبُّ الفرضيات يا هتان، أنا رجلٌ واقعيٌّ

– والواقعُ يقولُ أنَّ هناك الكثير من الفتيات اللتي لا يستطعنّ التحدث يا صديقي، ماذا لو التقيت إحداهُنَّ؟

– حتى لو التقيتُ بفتاةٍ بكماء لن أُحِبَّها؛ لأنَّني لا أريدُ أن أظلُم نفسي معها.

عقدتُ حاجبيَّ مستنكراً لما قالهُ خالدٌ وردّدتُ عليهِ:

– لا تريدُ أن تظلم نفسكَ معها!، ولمَ تظلمُ نفسك حين تحـبُّ فتـاةً بكمـاء؟! قد تكـون يا صديقي العزيز أطهـرُ وأنقى من تلك الأجسادِ الناعمةِ التي تتغنَّى بها في كلِّ ليلةٍ وفي كلِّ جلسةٍ، طالما أنَّ الشهوةَ هي الدافعُ الوحيدُ لك، دون أن يربطَكَ معها أيُّ حبلٍ من حبالِ العشقِ أو حتى ميثاقٌ غليظٌ! أليس كلامي صحيحاً؟

صمتَ خالدٌ وسكتتُ معهُ أنا، وفي داخلي دماءٌ تهتفُ بالنصرِ.
فمنذُ أن رأيتُكِ يا حنيني وأنتِ قضيّتي وحدي، أدافعُ عنكِ بشراسةٍ، ودافعي أن أنصرَ مَن كان مثلك.
دافعـي لـم يكـن عطفـاً عليكِ وعلـى حالكِ، ولـم تكن صلةُ القرابـة تلـك دافعـاً للوقوفِ فـي صفّكِ، بل إنَّها القناعـةُ التامّةُ في صـدري بـأن ليس هناك إنسـانٌ ناقـصٌ، وليس هناكَ بشـرٌ بقداراتٍ محدودةٍ، فلسنا مَن نصنعُ أنفسنا بالشكلِ الذي نريدهُ، وربَّ شخصٍ لا يقوى على النطقِ ولكن في لسانهِ دررٌ وحكمٌ ما لها مثيلٌ.

* * *

(3)

مرَّت أيامٌ... أيامٌ دونكِ
أنحتُ فيها صخرَ الحبِّ دونَكِ
أطلقُ أمنياتِ اللقاءِ وحدي دونَ أمنيكِ
أسهرُ ليلَها مع الدمعِ... دونَكِ
أقضي نهارَها مع اليأسِ... دونَكِ
حتَّى طغتْ نيرانُ الذكرى..
حتَّى ماتَ القلبُ.. دونَكِ

ليلٌ ذو سحابٍ أسود، وسماءٌ ترعدُ، ومطرٌ يهطلُ، وروحٌ مبتلَّةٌ من مياهِ الحنين، ومن أمطارِ الحزنِ العظيم.هكذا ليلي دونكِ، أسودٌ في كلِّ الأزقّةِ... كلُّ شيءٍ ممتزجٌ بالسوادِ، كوبُ القهوةِ الذي على يميني، والقلمُ الأسودُ الذي أكتبُ بهِ أنيني.

بحثتُ عن النسيان، في كلِّ الطراقات، وفي كلِّ الممرّات... طرقـتُ بابـهُ وأهديتُـهُ كلَّ ذكرياتـي وصور عينيـكِ، وارتجيتهُ كثيراً ودعوتـهُ لزيـارةِ عقلـي ودهاليـزِ قلبـي. ثـمَّ دعوتُ الـربَّ أن يحيهِ فـي قلبـي، أن ينزلَـه على صـدري كوحيٍ يلقِّنني آياتٍ وتعويذاتٍ تطـردُكِ مـن رأسـي، وتهدمُ بيتـكِ العالي في فردوسِ قلبي، فلا هو

الربُّ الذي استجاب لدعائي، ولا هو النسيانُ الذي قبل دعوتي!.
حاولتُ أن أنساكِ، وأن أطردَ كلَّ ذكراكِ... وعلى بُعدِ ثوانٍ قليلةٍ من النسيانِ، أشعرُ بأنّني اشتقتُ إليكِ.!

مضت الأيامُ منذُ أولِ سقوطٍ في كمينِ عينيكِ، ومنذُ أول مرافعةٍ عن قضيةِ شفتيكِ، مضت هكذا سريعاً دون أن أشعر بقيمةٍ لها، ودون أن أقطفَ أيَّ ثمرةٍ منها، وكأنَّ أيامي تنتظرُكِ؛ لتكوني لها سبباً للسعادةِ وللحياةِ وللفرحِ.

هاتفي يرنُّ بحماسٍ ويومضُ باسم أمي على شاشتهِ، وأنا غارقٌ بين أوراقِ «البلوت» التي بيديّ، وشارد الذهنِ أفكرُ بطريقةٍ أكسبُ بها هذهِ الجولةَ، وأحطِّمُ رأسَ ملكِ اللعبةِ خالد، إلى أن شتَّت أفكاري صوتُ صديقي الذي ينبِّهُني بأنَّ هاتفي يرنُّ..

- أهلًا أماه..
- أهلاً هتان، أين أنت؟
- مع أصدقائي... هل تريدون شيئاً؟
- بنتُ عمِّكَ هُنا، وتريدُ أحداً يقومُ بإيصالها للبيتِ فأبوها منشغلٌ بعملٍ آخر.

وبقلبٍ يردِّدُ بـ «يا رب» سألت:مَن؟ حنين؟

- نعم...
- بضع دقائق وسأكون عندكم.

قذفتُ أوراق اللعبة وهممتُ بالخروجِ، وخالدٌ يضحك ويقول: «هكذا يهربُ الجبناء». وليتهُ كان يعلمُ أنّني كنتُ أهربُ منهُ لأربح جولةً أخرى، جولةً تحتاجُ لمكرٍ من نوعٍ آخر أمام رقَّةِ رمشيكِ.

وفي الطريقِ كنتُ مُنشغلًا بتهذيبِ ذقني وتعديلِ هِنادمي وإبرازِ شيءٍ من ملامحِ رجولتي كتلكَ العضلتينِ الكبيرتينِ في ذراعيَّ، فأنا أحتاجُ أن أكون في حلَّةٍ جميلةٍ؛ لأجذب عينيكِ وربما قلبكِ، أما أنتِ لم تكوني بحاجةٍ لإبرازِ أنوثتُكِ، فعينيكِ متكفلتينِ بهذا الأمر والقليلُ من زخَّاتِ عطركِ كانت كفيلةً بإغوائي. ولا أذكرُ كم من إشارةِ مرورٍ حمراء قد تجاوزتُ!، وأنا متلهفُ القلب لرؤيتكِ مجدداً.

هكذا هي الفرصة لا تتحملُ إشاراتِ مرورٍ تأخِّرُها، فتذهب دون أيِّ فرصةٍ أخرى تتكرر.

وصلتُ لعتبةِ بابِ منزلِ جدتي، وكأنَّ العتبةَ تبتسمُ لي وتقول: أنا عتبةُ بابِ الحبِّ، وأنا عتبةُ سعدِك.اتصلتُ بأمي وأخبرتُها بأنني في الخارجِ أنتظرُكِ، وانتظرتُ خروجَكِ وكأني أنتظرُ خروجَ عروستي من حفلِ زِفافنا؛ لأختلي بشفتيها وأستنشقُ رائحةَ عطرِ رقبتِها.

وبعد خمسِ دقائقَ مرَّت ببطءٍ شديدٍ يهلُكَ قلبي الشغوفُ لرؤيتُكِ... فُتِح بابُ المنزلِ وعينيَّ تحدِّقُ نحوهُ، وتتأملُ أطراف عباءتكِ لعليِّ أرى شيئاً من بياضِ ساقيكِ، أو تهبُّ ريحٌ تجعلُ عباءتكِ تلتصقُ بخصركِ فأرى شيئاً من انحنائهِ المثير.

ظهرتِ كقمرٍ سقطَ من السماءِ أو كملاكٍ يشعُّ نوراً، ظهرتِ وبدأ القلبُ يرتبكُ ويتعالى صوتُ نبضهِ. يااااه ما أجملكِ وما أجمل هذا اللثام الذي لا يُظهرُ إلا عينيكِ ورمشيهما الناعمينِ، أحببتُ لثامَكِ كثيراً رغم أنَّه يحرمُني من التمتُّعُ بالنظرِ لوجهِ ملائكيٍّ بديعِ

الخُلقِ.

أزحتُ ناظريَّ عنكِ، وأذناي تنتظرُ صوتَ فتح الباب... صوتَ أولِ خطواتُكِ على أرضي، وأولِ قربٍ بيننا دون حاجزٍ أو محرمٍ.!

فُتِح الباب، وركبتِ يا أميرةُ الأشعار، ودِماءُ قلبي بدأت بالغليان.

ما أجملها من لحظةٍ حين تقودُ سيارتكَ والقمرُ يُرافقُك، تشعرُ بأنَّكَ تطير فوق الغيوم، وتتباهى بقمرِك أمامَ النجومِ، تشعرُ أنَّك في جولةٍ استثنائيّةٍ، لا تريدُها أن تنتهي، لا تريدُ أن تصل لوجهتك، وتتمنّى أن تتوهَ بين الطرقاتِ وأن تطولَ المسافاتُ، فقط لكي تكسبَ مزيداً من اللحظات... مزيداً من نبضاتِ الحبِّ الجميلِ.

انطلقنا وانطلقتْ في داخلي أمنياتٌ كثيرةٌ وأحلامٌ كبيرةٌ، كُنتِ أنتِ سيدتَها وأميرتَها. وكم كُنتُ ممتناً لتلك المرآةِ الصغيرةِ المعلقةِ أمامي، فقبل هذهِ اللحظة لم أكن أعرفُ فائدةً تُذكرُ من صُنعِها، حتى صارتِ الأداةُ التي أستطيعُ من خلالها رؤيةَ عينيكِ والجزءَ الصغيرَ الظاهرَ من وجنتيكِ.

لم يكنْ هُناك كلامٌ يُحكى بيننا، فكما يقولونُ يا جميلتي: «الصمتُ في حرمِ الجمالِ جمالُ!». وما أجمل ذلك المطرب الذي كان صوتُه الشامخُ يكسرُ هدوء جولتنا، وما أجمل كلمات ذلك الشاعر الذي كان يكتبُ قصيدتَه للحظةٍ كهذهِ..

«أحِبّيني بلا عُقَدٍ
وضيعي في خُطوطِ يدي
أحبِّيني لأسبوعٍ... لأيامٍ... لساعات
فلستُ أنا الذي يهتمُّ بالأبدِ...» (نزار قباني)

أحِبِّيني... فأنتِ حالةُ إدمانٍ لا تتكرر... ونهرُ هذيانٍ، وقطعٌ من السُّكر.

أحِبِّيني... فأنتِ واحدتي ومُهلِكتي... وبين عينيكِ، أريدُ حفرَ قبري.

أحِبِّيني... فأنتِ نبضُ قلبٍ لا يهدأُ... وليلةُ جنونٍ وأجملُ مرفأ.

أحِبِّيني... فأنتِ، لا أعرفُ حقاً مَن أنتِ!، سوى أنَّكِ الوحيدةُ التي تجيدُ القفزَ بين شرايين قلبي.

أحِبِّيني... لا تتردَّدي ولا تتأخَّري، فأنا مشغولٌ بنسجِ قصيدتي... وضعتُ فيها عينيكِ، ورسمتُ فوقها شفتيكِ، وأخافُ أن تتأخَّري... فأُحِبُّها أكثر من خديكِ.!

وما إن انتهت حالةُ هذياني اللذيذة، حتى وجدتُ أننا قد وصلنا... وصلنا وبابُ منزلكِ مشتاقٌ لعودتكِ والنوافذُ بنظرةٍ مشتاقةٍ تنظرُ إليكِ، كلُّ شيءٍ في ذلك المنزلِ يترقَّبُ عودتَكِ وكأنكِ الكهرباءُ التي تضيءُ أرجاءهُ... لحظةُ فرحٍ تعيشُها أرضُ ذلك المنزلِ، ولحظةُ تعاسةٍ يعيشُها قلبي... كيف أدعُكِ تذهبين وأنا لم أكتفِ، ومازال قلبي يريدُ الكثير والكثير منكِ...

وبابتسامةٍ ناعمةٍ نزلتِ، ابتسامةٌ لم أرها بشكلِها المعروفِ، بل رأيتُها تخرجُ من عينيكِ، ولم تستطيعي أن تقولي وداعاً، ولكنَّها عينيكِ كانت تلوِّحُ بـ «إلى لقاءٍ آخر»!.

عدتُ إلى منزلي وسريعاً صعدتُ إلى غرفتي وأنا مبتسمٌ وقلبي مزدحمٌ بكِ... وفي تلك الليلةِ لم أكن بحاجةٍ لمداعبةِ النوم

لكي يأتي، بل جاء سريعاً كما يأتي بعد نشوةِ الجسدِ...

نمتُ وأنا مبتسمٌ... وصحوتُ وأنا مبتسمٌ... وكانت عينيكِ هي آخرُ ما فكّرتُ بهِ... وأولُ ما تذكّرتُهُ حين استيقظتُ.

أصبحتْ رؤيةُ عينيكِ تزرع ابتسامةً جميلةً على ثغري.

* * *

حين نحبُّ تتعلّقُ سعادتُنا على أكتافِ مَن نحبُّهم، فإن أداروا لنا ظهورهم، أدارت لنا السعادةُ ظهرها، وإن اقتربوا منّا زادت نبضاتُ السعادةِ في قلوبنا.

حين نحبُّ يصبحُ مَن نحبُّهم فرحَنا وابتسامتَنا وبهجتَنا، والليلَ الطويلَ الذي نسهرهُ بملءِ إرادتِنا، وشمسَ الصباحِ البشوشةِ، ونكهةَ القهوةِ الحلوةِ... وأحياناً المرَّةِ!.

يصبحون كلَّ شيءٍ جميلٍ في حياتنا، وما سواهم لا يُذكرُ حتى وإن أعطانا ما لم يقدروا هم عليه.

هكذا أصبحتِ، فرحي وسعادتي وبهجتي وكلَّ الأمورِ الجميلةِ في حياتي. أصبحتِ ابتسامتي الحلوة، وفرحتي الكبيرة، وكلَّ ما يتعلّقُ بكِ يسعدُني مهما كبرُ أو صغر. قهوتي لم تعُد بحاجةٍ لقطعٍ من السُكر، فالقليلُ من الغَرقِ في ذكراكِ كافيٌ؛ ليوهمَ عقلي بأنَّ كلَّ شيءٍ ذو مذاقٍ سُكريٍّ.

منذُ تلك الليلةِ وتلك الجولةِ وأنا أبحثُ عن طريقةٍ أصِلُ بها إليكِ، فأنا أريد:

أن أخبرَكِ بأنّني تجاوزتُ مرحلةَ الإعجابِ، وما أراهُ في نفسي هي علاماتُ الهيام.

أن أخبـرَكِ بأنّنـي أريـدُكِ وأنّني أحبُّ كثيراً عينيكِ وأنَّ عينيكِ - والله - رائعتان.

أن أكتبَ لكِ قصيدةً وأرتِّلهَا على مسمعكِ، حتى أرى سنَّكِ الضاحكِ الخجولِ، واستمتعُ برؤيةِ لونِ الوردِ الأحمرِ على خدَّيكِ.

ما أكثر ما أريدُه معكِ، ولكن كيف السبيلُ إليكِ؟.

(4)

ها هي الليلةُ العاشرةُ من بعدِ ذلك اللقاء... ليلةُ فجيعةٍ كبرى، ليلـةُ دمـوعٍ عظمـى، أهاتٌ كثيرةٌ، وأنينٌ طويلٌ، ونحيبٌ ليس بقليلٍ

الســاعةُ تصيـرُ إلـى الســابعةِ قبـل البكاء، وأنا غـارقٌ في كتابةِ رســالةِ الـماجسـتير، رقـمٌ غريـبٌ يتصلُ بي، لا أذكـرُ أنني رأيتهُ من قبل، بهدوءٍ رفعتُ هاتفي وأجبتُ على تلك المكالمةِ المشؤومة.

– السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

– الأخ هتان؟

– نعم، مَن معي؟

– معك الدكتور سعود من مستشفى الملك فيصل التخصصي

بعدما ارتعش جسدي خوفاً ألف مرةٍ في ثانيةٍ واحدةٍ فقط...

أجبت:

– خيرٌ إن شاء الله؟

– نريدُك أن تحضرَ حالّا إلى هنا...

– لماذا؟ مَن هو المصابُ؟

– تعال الآن وستعرفُ كلَّ شيءٍ

انتظر انتظر... لا تتركني حائراً هكذا، قل لي مَن لديكم؟
- تعال الآن يا أخ هتان، وستعرف كلَّ شيءٍ.
أرجوك قلْ لي مَن المصاب..ألووو ...ألوووو
المتصلُ أنهى المكالمة وأنا أحملُ قلبي بين يديَّ.
«ياالله يا رحيم الطف بنا، يا كريم يا عزيز الطف بحالنا، ولا ترنا مكروهاً في أحدٍ من أحبابنا...»، هكذا بدأتُ أرددُ وأدعوا الربَّ بأن لا يحزن قلوبنا، وكأنَّني كنتُ على درايةٍ بأنَّني سأواجهُ أصعبَ موقفٍ قد يمرُّ بهِ الإنسانُ في حياته.
جذبتُ ثوبي سريعاً، ارتديتهُ وخرجتُ من غرفتي راكضاً... يا الله نسيتُ مفاتيح سيارتي... عدتُ وأخذتُها سريعاً وفي طريقي لباب الخروج، كانتا أمِّي وجدَّتي جالستينِ هناك قريباً من البابِ، وشاهدتا الخوفَ في عينيَّ وأنا أسابقُ نفسي للخروج، وكيف كانت ترتعشُ يداي... مسكتُ مقضبَ البابِ ودفعتُ بهِ بعيداً، ففي حالةِ خوفٍ كهذهِ لا يجبُ أن تقفَ أمامَنا آيَةُ أبوابٍ.
أركضُ للسيارةِ وأمي تركضُ خلفي وهي تنادي: «هتان، هتان... ما بك؟، توقف أرجوك.. هتان لا تتعبني توقف»، آهِ يا أمي ليت قدامي كانتا قادرتينِ على التوقفِ، كلُّ شيءٍ بي لم أعد أستطيعُ التحكُّم بهِ، والوحيدُ الذي كان مستعداً للتوقفِ هو نبضُ قلبي.
كيف لا يتوقَّفُ نبضي وأنا أعلمُ ما سأواجهُ هناك، وأنا أعلمُ أنَّني سأعودُ باكياً على رجلٍ لا يعوَّضُ أبداً، وحزينَ القلبِ على أبٍ لا أستطيعُ مهما كبرتُ أن أعيش دونهُ...

فوحدهُ هو أبي مَن خطرَ في بالي، واهتزَّت كلُّ أطرافي بمجرَّدِ التفكير بأنه متعبٌ أو مصابٌ. وياليت حدسي كان كاذباً...، ليتَهُ كان وساوِسَ شيطانٍ لعينٍ، أو أضغاثَ أحلامٍ وبعد قليلٍ سأفيقُ منه.

الطريقُ إلى المستشفى -في زحمة الرياض الشهيرة- أخذَ منِّي ما يقاربُ الخمسة والثلاثين دقيقةً... ومئة دعاءٍ للربِّ، وخمسين رجاءٍ له، وربما سبعين مكالمةٍ لهاتفِ أبي الذي يزيدُ من قلقي في كلِّ مرَّةٍ يجيبُ بـ: «عفواً إنَّ الهاتفَ المطلوب لا يمكن الاتصالُ به الآن»، والكثير الكثير من اللعنات على هذا الهاتفِ الذي يأبي أن يطمئنَ قلبي، وعلى كلِّ سيارةٍ أمامي تأخِّرُ وصولي للمشفى.

وصلتُ وركنتُ سيارتي أمامَ بابِ المشفى دونَ أن أهتمَّ لصراخِ حُراسِ المشفى، وهم يأمرونني بإزاحتِها، وتوجّهتُ سريعاً لمكتب الاستقبال.

- السلام عليكم أخي... أحدهم اتصل بي وأمرني بالحضورِ حالاً...، خيرٌ إن شاء الله، ماذا أردتم مني؟

- ما اسمك؟

- هتان محمد..

- لقب العائلة لو سمحت..

- الخالد..

بدأ الموظّف بتقليب الأوراق الصفراء التي أمامه ثم قال: انتظر قليلاً في غرفة الانتظار، سيحضر الطبيب ويحدِّثك، فقط انتظر هناك.

جررتُ قدميَّ كجنديٍّ جريحٍ، وأسندتُ ظهري على كرسي الانتظار، وأنا شاردُ الذهنِ أشعثُ الشعرِ من هولِ المصيبةِ التي أتوَّقعُ حدوثَها مع قدومِ الطبيبِ.

مع بطءِ قدومِ الطبيبِ، أحسستُ أنَّ الشيبَ بدأ يغزوني، فقدماي تهتزُّ، وقلبي ينبضُ بسرعةٍ كبيرةٍ، وكأنَّه مجهدٌ من البقاءِ حيّاً طوالَ تلكَ السنينِ القليلة، وأشعرُ أن شعري بدأ يتساقطُ... يتساقطُ بلونٍ أبيض، وظهرت تجاعيدُ القلقِ على محيّاي حين جاءَ صوتُ الطبيبِ منادياً...

- هتان... هتان

قفزتُ مسرعًا إليه وأنا أردد

- نعم، نعم.. أنا هنا

صافحني وقال: تعال معي إلى مكتبي أريدُ أنا أخبرَك بأمرٍ

تشبَّثتُ بهِ وأنا أحاول معرفة هذا الأمر الهامِّ الذي أكلَ الكثيرَ من أجزاءِ قلبي، ولكنَّهُ لا يتحدَّثُ ولا يقولُ شيئاً...، ولما يتحدَّثْ فهو خبيرٌ في هذهِ الأمور، ويعلمُ جيداً ما يسببهُ المفجوعون من أخبارهِ في أورقةِ المشفى من بكاءٍ وصراخٍ.!

دخلتُ معه إلى مكتبهِ الكئيبِ، أغلقَ البابَ وأمرني بالجلوس، ثم قال: هتان، سأخبرك بأمرٍ، ولكن أريدك أن تكون قويّاً.

- قلْ قلْ أرجوك، لم أعدْ أحتمالُ أكثر

- قبل ساعتين، وقع حادثُ دهسٍ في إحدى الطرقِ، وحين أحضرت سيارةُ الإسعافِ المصابَ لدينا كان ينزفُ، وقد نزفَ الكثيرَ من الدماءِ في الطريقِ إلى المشفى، وللأسف لم نستطعْ

إنقاذهُ، فقلبُه الهرِم لم يتحملْ هذا النزيفَ، وعندما تفحَّصنا جيوبَ ثوبِهِ وجدنا بعضَ البطاقاتِ الرسمية التي تدلُّ على اسمِهِ... محمد هتان الخالد

((ياالله، كيف يستطيعُ شخصٌ يداوي قلوبَ البشرِ أن يقتلها بهذهِ الطريقةِ الباردةِ.))

* * *

أبي، والروحُ تصرخُ ألماً على فراقِكَ، والجسدُ هزيلٌ من دونِ استقامتِك.

أبي، يا رجلاً أنا نصفُهُ الثاني، وهو كلُّ أرجائي.

أبي، يا مَن لا تقسو أبداً، كيف قسيتَ على قلبي، ورحلتَ بعيداً عنِّي.

أبي يا حبيبي، وقدوتي، وشمعتي وأجملُ وأكملُ وأطهرُ الرجال في حياتي...، من أين آتي بأبٍ ثانٍ، حتى أكبرَ بين يديهِ وأتعلمَ من جميلِ صنعهِ.

أبي، أرجوكَ عُدْ... عدْ ليومٍ واحدٍ، لساعةٍ واحدةٍ، لدقيقةٍ يتيميةٍ...، أرجوك عُدْ ففي شفتيَّ قبلةٌ تريدُ الهبوطَ على قدمِكَ، وقبلةٌ أخرى تريدُ معانقةَ رأسِكَ...

يا أبي، مهما كبرتُ، ومهما نضجتُ وتعلَّمتُ وأحسنتُ التصرُّف، لن أستطيعَ من دونِكَ التقدَّمَ، برحيلكَ وضعتني على خطٍّ أعوجَ بعدما كان يستقيمُ بنصائحِكَ.

يا أبي، أنتَ السماءُ، والغيومُ والكثيرُ من الأصدقاء...، كيف أعيشُ الآن من دونِ سمائي؟

يا أبي، الكتابةُ إليك... أصعبُ بكثيرٍ مما كتبتُه لفاتنةِ قلبي!

رحيلُ أبي كان رحيلاً مُرّاً ومؤلِماً، فمَن بعدهُ سيرفضُ رغباتي المراهقة خوفاً عليَّ، ومَن بعدهُ سيصرخُ في أذنيَّ حين أتخلَّفُ عن جماعةِ المسجدِ وصلةِ الرحمِ، مَن بعدكَ يا أبي سيحرصُ على أن نجتمعَ كلَّ مساءٍ، وإن كان اجتماعنا على وجبةِ عشاءٍ...، ومَن سيخجلُ كثيراً حين يسمعُ أمي وهي تحكي لنا قصصَ زواجها، وكيف أنها أحبَّت زوجها كثيراً من بعد أولِ ليلةِ لقاءٍ.

كيف أحكي يا أبي مشهدَ رؤيةِ جسدِك الباردِ مُمدّداً في ثلاجةٍ؟ والصرخاتُ في داخلي ساخنةٌ وجافَّةٌ...، كيف أعودُ من دونك، من دونِ جسدِكَ و روحِكَ؟، وماذا أقولُ لأمِّي؟ زوجُكِ ماتَ!، رأيتُ قبلَ قليلٍ جسدَهُ من دونِ تلكَ الروحِ التي قضيْتِ سنينَكِ تعتنين بها وتحبين قربها وبعدها وطيبها وقسوتِها!!.

وماذا أقولُ لجدَّتي الكبيرة؟ ابنُكِ الذي يقولُ لكِ دائماً: «جعلَ اللهُ يومي قبلَ يومكِ يا ستَّ الحبايبِ»، حين تشكين من أمراضِ الكبرِ، فقد استجابَ اللهُ دعاءَهُ ورحلَ عنكِ وجعلكِ تبكين عليهِ بدلاً من أن يبكي عليكِ!!.

وماذا أقولُ لجُمانةَ، وليمامة؟، أبوكُما الذي لا يرضى أن يرى الحزن على محيَّاكُما قد رحلَ ورضي أن تحزنا الآن!، وكيف أصبِّرُ نفسي؟ وأنا سأحملُك بيداي غدًا واضعُكَ في الترابِ، أضعُ أحبَّ الناسِ لقلبي في الترابِ.!

لم أستطع العودة للمنزلِ بعد أن ماتت كلُّ مشاعري مع موتِ أبي، كان ذلك الليلُ حالكَ السوادِ، ليلٌ جاء مُتربِّصاً لقلبي؛ ليحزنهُ

كثيراً ويألمهُ كثيراً

أخذتُ هاتفي بعد أن صارَ بكائي بدونِ دموعٍ، بعد أن نضبت أنهارُ عينيَّ فلم يتبقَّ منها شيئاً ليسقطَ، بحثتُ في قائمةِ الأسماء على اسمٍ قريبٍ يستطيعُ احتوائي في حالتي هذه، ولكن لم أجدْ غيرَ صديقي خالد أهلاً لهذهِ المهمَّةِ الحزينةِ...، فكم من صديقٍ كان أقربَ لنا، ويفهمُ قلوبَنا أكثر من شخصٍ تربطنا معهُ صلةُ رحمٍ ودمٍّ.!

خمسةَ عشرَ دقيقةً كانت كافيةً؛ ليصلَ خالدٌ سريعاً للمشفى، رغم أنّه لم يفهمْ من مكالمتي شيئاً غير أنّني بالمشفى وأبكي.!دخلَ خالدٌ للمشفى باحثاً عنّي، فوجدني جالساً على الأرضِ، فلا كرسي يستطيعُ تحملَ وزنَ صراخي ودمعي.

أقبلَ عليَّ وأخذَني في حضنِهِ وقال: ما بك... ما بك يا هتان... لمَ تبكي؟

ويا لصعوبةِ الجوابِ على هذا السؤال، ويا لتعاسةِ المجيب، ويا لخيبتهِ الكبيرة... ومع شهقاتي أجبتهُ: أبي... آه يا خالد، أبي مات... رحل

ولم يملكْ خالدٌ إلا الصمتَ، فهو يعلمُ جيداً أن لا شيءَ في تلكَ اللحظةِ سيخفِّفُ عنّي ويجفّف دمعي...

ساعدني على النهوض، وجعلني أتكِئ على كتفيهِ واتجهنا لخارجِ المشفى... حاول خالدٌ كثيراً أن يخفّف عنّي بقولهِ: «يا هتان، يا صديقي إنهُ قدرُ الله، وهو مكتوبٌ علينا جميعاً، أبوك ليس بحاجةٍ لدموعِكَ الآن، ولا لهذا الأنين، هو بحاجةٍ لدعائكَ،

فإن كنتَ تحبُّهُ حقّاً ادعوا له، فهذا الشيء الوحيدُ الذي سينفعُهُ.»

واستمرَّ في الحديثِ والنصحِ حتى وصلنا إلى المنزلِ، وأنا خائفُ القلب مما قد يحصل في الداخل، وقبلَ أن أودِّعه أمسكَ بيدي، وقال: «يا هتان، أنت الآن رجلُ المنزلِ، أنت الآن الأبُ الحنونُ على أفرادِ عائلتهِ...، أمُّكَ وأخواتُك وكلُّ أفرادِ عائلتك سيكونون أقوياء إن كنتَ قوياً أمامهم...، حاولْ أن تتحدَّثَ مع أمِّكَ أولاً وتخبرَها عمَّا جرى، وبمجرَّدِ معرفتها بالأمرِ سيعرفُهُ الكلُّ.»

وكان خالدٌ صادقاً كثيراً في هذا الجانب، فبعدما دخلتُ للمنزلِ، وجدتُ أمي تنتظرُ عودتي وهي تبكي في فناءِ المنزلِ، فخروجي بتلك الطريقةِ كان لا يبشِّرُ بخيرٍ أبداً... استقبلتني بحضنٍ كبيرٍ، وهي تتساءلُ: «أين أباكَ يا هتان، أخبرني أين هو؟، فقد حاولتُ الاتصالَ بهِ كثيراً ولكنهُ لا يجيبُ، سألتُكَ بالله يا ولدي، طمئنْ قلبي، قل لي أنّه بخيرٍ.»

لم أتمالكْ نفسي، فسقطتُ على قدميها وبصوتٍ كالسيفِ مزَّقَ قلبها: «رحلَ أبي... رحلَ يا أمِّي»....

* * *

(5)

When I am alone with God, I see that God is really all I have. All that matters. All that will last. At these times I realize that the magnitude of what I have is incomprehensible. Usually I cry for the sheer joy of it. Not tears of defeat, but rather tears of gratitude." (1)

لا شيءَ يبقى... ولا شيءَ يرحلُ...

لا شيءَ من الأفراحِ يبقى، ولا شيءَ من الأحزانِ يرحلُ...

أشعرُ بأنّني عصفورٌ، ولكن من دون جناحين... أشعرُ بأنني شجرةٌ، ولكن من دونِ أوراقٍ... أشعرُ بأنّني لازِلتُ على قيدِ الحياةِ، ولكنَّ رحيلَ أبي جعلَ حياتي سوداء... سوداء قاتلة...

أقضي يومي مُحاوِلاً تجنبَ رؤيةِ أمّي، ورؤية الحزنِ العقيمِ الساكنِ في عينيها...، أتجنَّبُ رؤيتها؛ لكي لا تبكي حين ترى صورةَ أبي المرسومةَ على وجهي، فأنا ذلك الاقتباسُ الصغيرُ من وسامتهِ، وأنا مَن يتملكُ نبرةَ صوتٍ قد يخيَّلُ للسامعِ أنَّ ذلك الصوتَ أتى من حنجرةِ أبي...

مسؤوليةٌ كبيرةٌ وقعت على عاتقي، حتى أصبحتُ أشعرُ بأنني لستُ لنفسي...، ففي ليلةٍ وضُحاها أصبحتُ أباً بديلاً لطفلتينِ،

(1) Pola Muzyka

كنتُ سابقاً أخاهنَّ الكبيرَ فقط...، أمَّا الآن فأنا مَن يجبُ عليهِ توفيرُ طلباتهن، والسهرُ على راحتِهن، وقضاءُ باقي العمر بجانبِهن إلى أن يأتي يومٌ مُحزنٌ ومُفرحٌ، أضعُهن فيه في أعشاشِ أزواجِهنَّ...

تلك المسؤولية الكبيرة جعلتني أنسى ما كنتُ أبنيهِ لنفسي، وما كنتُ أطمحُ لتحقيقهِ، فيجبُ عليَّ الآن تركُ أوراقِ دراستي التي أعددتها في مجالِ التنميةِ الاجتماعية، أملاً في الحصولِ على درجةِ الماجستير التي كانت أقلَّ طموحاتي وأجمل أمنياتي أبي...

يجبُ عليَّ الآن البحثُ عن عملٍ نافعٍ؛ لأستطيعَ تنيمةِ هذهِ الأسرةِ الحزينةِ، وتأمينِ مصدرِ رزقٍ كريم لها

استودعتُ اللهَ طموحي ثم جمعتُ أوراقَ بحوثي التي قضيتُ ما يقاربُ السنتين أعملُ عليها، ووضعتُها في خزانةٍ صغيرةٍ، وبدَّلتُها بملفٍّ أخضرِ اللونِ، كان يلعنه كثيراً صديقي خالدٌ في كلِّ مرَّةٍ يُرفَض فيها ويعود خائباً من دونِ فرصةٍ للعملِ.

فها أنا ذلك الطفلُ المدلَّلُ الذي يعيشُ في رغدٍ دون الحاجةِ لعملٍ، أطرقُ أبواب الوزارتِ والمؤسساتِ وأبتسمُ كثيراً لهؤلاء المسؤولينِ عن قبولِ الموظفين رغم جفافِ أسلوبهم، ورغم نظراتهم التي تقول لكَ: «أنت لا شيء»!.

أستيقظُ متفائِلًا في الصباحِ، وأعودُ خائباً في المساءِ... أعودُ مُطأطأ الرأسِ، خالي اليدينِ،

فعودتي بتلك الهيئةِ كانت تخبرُ عائلتي بأنَّنا قد نمرُّ بمرحلةٍ يجبُ علينا فيها أن نقتصدَ كثيراً، وأن نتكاتفَ إلى أن يأتي فرجُ الرزاقِ الكريم...

الأيـامُ تجـري، وفرصــةُ العمـلِ لا تأتي، أصبحـتُ أعيشُ في قلقٍ كبيرٍ وخوفٍ من المستقبلِ، ومما قد يأتي بهِ... حتى وضعتْ أمِّي حدّاً لهذا القلق، فمن خلالِ مكالمةٍ لشقيقها الأكبر استطاعت أن تؤمِّنَ لي وظيفةً مرموقةً في إحدى الشـركاتِ الكبيرةِ التي كان يديرُها خالي...، وكأنَّها بفعلِها هذا تقول: نحنُ مجتمعٌ لا يستطيعُ أن يعيشَ بدون وساطةٍ ترفعُنا من أسفلِ القائمةِ إلى أعلاها.!

ورغـمُ أنَّنـي كنـتُ أرفـضُ وبشـدَّةٍ هـذا المبـدأ الـذي يشـوِّهُ مجمعتنـا، إلا أنَّني كنـتُ مُجبراً على وضعِ كبريائي جانباً من أجلِ هــذهِ العائلـةِ التـي لا أدري إلـى أيـن سـتأخذها الأيامُ وقبـولِ هذهِ الفرصةِ اللامتكررةِ...

وفي صباحِ اليوم التالي، تهندمتُ وتعطَّرتُ وأمسـكتُ بملفي الأخضـر، ثـم هممتُ بالخروجِ مبكراً علَّ وعسـى أن أنال إعجابَ مدير الشركةِ الذي أدعوهُ بخالي، وأضمنَ تلكَ الوظيفةَ...، وصلتُ إلى الشـركة واضطررتُ أن أنتظرَ ما يقاربُ السـاعة والنصف أمامَ بوابتِها؛ لأنَّ حماسيَ أنساني أنَّ وقتَ العملِ لا يبدأُ إلا في الساعةِ التاسعةِ.

تمضـي الدقائـقِ سـريعاً، ويأتي حارسُ الشـركةِ الفقيـرِ ليفتحَ أبوابَ الرزقِ للعاملين، أحمِلُ نفسـي وأتجهُ للطابقِ رقم ثلاثة بعد العشـرة حيـثُ يقبـعُ مكتـبُ خالي، واسـتأذنتُ بالدخـولِ ودخلتُ عليهِ...، وليتني لم أدخلْ لذلكَ الرجلِ اللئيمِ، فما وجدتُ منهُ إلا كلمـاتٍ مبطَّنـةٍ، كلمـاتٍ كان يقصـدُ بها التقليـلَ من قدرِ أبي الذي رفضَ أن يضعَ جهدهُ معهُ لينشئا هذهِ الشركةِ معاً، وفضَّلَ أن يعيش

حُرّاً وقريباً من أبناءهِ، ويكتفي بالعملِ البسيطِ الذي يوفّرُ لهم لقمةَ عيشٍ كريمةٍ. لا أريدُ أن أذكرَ ما قالهُ؛ لكي لا أغضبَ وأبلعَ غصّةَ غضبي التي ابتلعتُها ذاك اليوم من أجلِ عائلتي فقط. أنهى كلماتهِ اللئيمة ثم أمرني أن أُباشرَ بالعملِ غداً.

كان من المفترضِ أن أخرجَ سعيداً، سعيداً بتلك الوظيفةِ التي يحلمُ بها الآلافُ من العاطلين في بلدي، ولكنَّ حقدَ ذلك الرجلِ أخرجني كئيباً، فكيف أرضى أن أعملَ تحت رايةِ رجلٍ لازال يكنُّ الحقدَ لرجلٍ دُفنَ تحتَ الترابِ.

وفي المنزلِ كانت أمي تنتظرُ عودتي لترى ابتسامةَ السعادةِ على ثغري، أقبلت عليَّ وبادرتني الحديث: أعطني البشرى يا ولدي.

وبصوتٍ مقهورٍ أجبتُها: حصلتُ على الوظيفةِ يا أمي...، غداً يكون أولَ أيامِ عملي بإذن الله..

تغيَّرت ملامحُ وجهِها المنيرِ وردَّدت خلفي: بإذن الله... بإذن الله يا هتان.

وقبل أن أصعدَ لغرفتي، عادتْ إليَّ وأمسكت بيدي، ثم قالت: يا حبيبي، أعلمُ أن لقاءَك بخالك لم يجرِ على نحوٍ جيدٍ، عيناكَ تقول هذا، ولكن.. تعلمُ ما نمرُّ بهِ الآن، فاصطبر يا بُني من أجلي، ومن أجلي جُمانة ويمامة...

قبّلتُ رأسها وطمئنتُ قلبها بقولي:يا أمَّ هتان، من أجلِ الجنةِ التي وضعها اللهُ تحت قدميكِ أفعلُ المستحيل إن أردتِ، فابتسمت جنّتي.

وصِعدتُ لغرفتي...ألقيتُ جسدي على السريرِ، وجسدي

وحـدَه مَـن كان على السـرير، أمـا روحي فكانت تحلّق في سـماءِ الأسـئلةِ، لمـاذا يحدثُ كلَّ هـذا لي؟، أيُّ بـلاءٍ هذا الذي يجعلُني أخفـض كبريائـي لرجـلٍ أحمق؟، وإلى أين سـيأخُذني المسـتقبلُ؟ أَبَقي لأيامي فرحٌ؟ أم الحزن سـيكونُ أقربَ أصدقائي؟، وسـأثملُ بالقهرِ فيما تبقّى من حياتي؟.

يـا رب لـم يكـنْ هذا مـا أريدهُ، ولم يكن هذا سـقفُ كفايتي وطموحـي، لا أريـدُ أن أكـونَ إنسـاناً عاديـاً، يعملُ ويـأكلُ ويصلّي ثـم ينـامُ. أريـدُ أن أضعَ بصمةً لي في جبينِ هذا الكوكبِ، أريدُ أن أكونَ نجمةً لا تموتُ في سماءِ هذا الكونِ، أريدُ أن أكونَ مختلفاً... مختلفاً فقط.

وفي غمرةِ غرقي في بحرِ المستقبلِ، جاءت رنَّةُ هاتفي حاملةً معهـا تهنئةً قصيرةً على شـكلِ رسـالةٍ قصيرةٍ، مـددتُ يدي لهاتفي الملقـى علـى الطاولـةِ، وقـرأتُ تلك الرسـالةَ دونَ أن أُعيرَ لها أيَّ اهتمـامٍ، فهـي جـاءت من رقـمٍ مجهولٍ لا أعـرفُ صاحبهُ، فظننتُ أن أحدَ الأقاربِ قد علم بحصولي على تلك الوظفية بطريقةٍ ما.

أعـدتُ هاتفـي لمكانـهِ، ثـم مِـتُّ ميتـةً صغرى تمنيتُها لو كانت كُبرى..

* * *

«الله أكبر... الله أكبر...»

صحـوتُ ى صـوتِ الأذانِ، وأنا لا أعـرفُ أذان أيِّ صلاةٍ هوِ غادرت سـريري، واتجهتُ نحو الطابقِ السـفليِّ حيثُ وجدتُ جدَّتـي تسـمعُ لإذاعـةِ القـرآنِ كما تفعـلُ دائماً.. جلسـتُ بجانبها

فأطفأتْ مُسجلَتها، وبدأت تعاتبُني على نومي والصلاواتِ التي فاتتني وأنا نائمٌ، فنظرتُ إليها بعينٍ حزينةٍ وقلتُ:

– جدتي... هتان ابنُكِ وحبيبُكِ سيبدأ أولَ أيامِ عملهِ غداً، وأنتِ لم تهنئيهِ وتعاتبينهُ أيضاً!

تغيَّرت نبرةُ صوتِها حتى امتلأت بالحنانِ وأجابتني:

– والله سعيدةٌ من أجلكَ يا ولدي، ولم أكن أقصدُ أن أكدِّرَ صفوك بكلامي، ولكن تأكَّد أنَّ الرزق يأتي من الله لا من العمل، فاحرص على صلاتك أولاً..

ثم ابتسمت وقالت: والآن تعال أعطيك قُبلةً بمناسبةِ حصولك على هذهِ الوظيفة يا هتان...

اقتربتُ منها وقبَّلتُ رأسها، فغافلتني وطبعت قبلةً بيضاءَ على جبيني، أحسستُ بعدها بنورٍ يخرجُ من جبيني، وكأنَّه صار قنديلاً مضيئاً...، استأذنتُ بالخروجِ وقبل أن أتركَ مكاني همست جدتي في أذني قائلةً:

– هتان... إنَّ ابنة عمك حنين ترسل لكَ سلامها، وقد أخذت منِّي رقم هاتفكَ، وأظنُّ أنَّها أرادت أن ترسلَ لكَ تهنئتها

لا شعورياً أمسكتُ هاتفي، وبدأتُ أبحثُ عن تلك الرسالة...، وجدتها...، لا شكَّ أنَّها منكِ يا حنيني، ولكنِّي أريدُ التأكُّد أكثرَ... فقلتُ لجدَّتي ببرودٍ مُصطنعٍ:

– سلَّمَها الله وعافاها... هل تعرفين بمَ ينتهي رقمُها يا أمي الكبيرة؟

– لا أعلم يا هتان، ولكن انظر لدفتر الأرقامِ وستجدُ اسمها

مع رقمِ هاتفها مدوناً في بدايتِهِ، تجدهُ هناك بقربِ الهاتف...

فهمستْ روحي إليَّ قائلةً: يا مغفل، رقمها مدونٌ في ذلك الدفترِ الصغيرِ العتيقِ الذي تراهُ أمامَك كلَّ يومٍ فلا تلقي لهُ بالاً.!

وصدقت روحي بهمسِها، فتلكَ الأشياءُ الصغيرةُ جداً التي لا نهتمُّ بها ولا نبالي بوجودها، قد تكتنزُ أسباباً للسعادةِ التي نفتقدُها ولا نجدُها في أوضحِ أمورِ حياتنا.

وكم تمنيتُ تقبيلَ صفحاتِ ذلك الدفتر حينما قطعَ شكّي باليقينِ، بأن تلكَ الرسالةَ نسجتْها يديكِ، إلا أنَّ نظراتِ جدتي تجاهي منعت عنهُ قُبلاتي.

تلك الكلماتُ المستهلكة التي يستخدمها الجميع في مناسبةٍ ما، سواء كانت سعيدةً أو حزينةً، نشعرُ أنّها مستحدثةٌ ولم تكتبْ من قبل حينما تأتي من الحبيبِ فقط..

هكذا شعرتُ بكلماتِ رسالتكِ، رغم أنّها عاديةٌ جداً، ولكن مَن كتبها لم يكن بالشخصِ العادي في قلبي...، قرأتُها مراراً وتكراراً، وفي كلِّ قراءةٍ أتخيلُ ملامحَ وجهكِ وأنتِ تكتبينها.

«مباركٌ لكَ يا أخي حصولك على هذه الوظيفة...، سعدتُ بسماعِ هذا الخبر، وفّقك الله دائماً».

كانت رسالةً جميلةً جداً، وتبعثُ في جسدي الراحةَ، إلا أنَّ هناك كلمةٌ واحدةٌ فقط لم تعجبني إطلاقاً، وأفسدت عليَّ استمتاعي: «يا أخي»!

أنا أحبُكِ وأنتِ تدعوني بـ «أخي»، أنا أريدُكِ وأريدُ تذوُّقَ شفتيكِ، وأنتَ تضعيني في منزلةِ الأخ!، ألم تسمعي نبضَ قلبي

حيـن كُنـتِ قريبـةً جداً منّي؟، ألـم تشـعري بانجذابي نحوكِ وكيف كنتُ سـعيدًا برؤيتكِ؟! كم كنتِ قاسـيةً في تلك الرسـالةِ!، فكيف لي أن أقولَ لكِ أحبُّكِ وأنا الآن أخوكِ؟!

ومنذُ أن علمتُ بأنَّ تلكَ الرسالة أتت منكِ وأنا أمشي جسداً بلا عقلٍ، حائراً مشـغولَ البالِ في البحثِ عن طريقةٍ مناسـبةٍ للردِّ على رسـالتكِ. فأنا لا أريدُها أن تعبرَ كعبورِ أيِّ رسـالةٍ لطيفةٍ، بل أريدُها أن تكونَ بدايةَ رسائلِ طويلةٍ تجمعني بكِ وتقرِّبُني من قلبكِ، فالفرصـةُ لا تأتـي إلا مـرَّةً واحـدةً فـي العمرِ، وأنتِ مَـن بدأ بإلقاء جسورِ الوصولُ إلى جزيرةِ قلبِكِ.

كان الطريقُ إليكِ صعباً جدّاً، فليس هناك من طريقةٍ أسـتطيعُ مـن خلالهـا اقتحـام قلبـكِ بلطـفٍ دون أن توصِدي أبوابـهُ أمامي، وليـس هناك من أمرٍ أسـتطيعُ من خلالـهِ جذبكِ للحديثِ معي...، كان علـيَّ أن أختـرعَ شـيئاً مـا قادراً على البقاءِ بيننـا؛ لنتحدَّثَ عنهُ طويلاً دون أن نملَّ من الحديثِ عنه.

خرجتُ من المنزلِ، وأحرقتُ علبةَ سـجائرٍ كاملةٍ، واحتسـيتُ كوبينِ من القهوةِ السوداء المرَّةِ وأنا أفكِّرُ وأخطِّطُ، حتى انتهى بي سـرحاني الطويل بكتابةِ رسـالةٍ حزينةٍ، دعيتُ الله أن تحزني على كاتبِها وتواسيهِ بقربِ منكِ:

«سعيدٌ بسعادتكِ لي يا حنين، رغمَ أنّني لم أشعرْ أبداً بالسعادةِ حين قبلتُ هذهِ الوظيفةَ التي أتتْ على شكلِ صدقةٍ».

وانتظرتُ ردّاً منكِ، ردّاً يسعدُ قلبي حقّاً، إلا أنَّ انتظاري طال كثيراً حتى فقدتُ الأملَ بوصولِ رسالةٍ أخرى منكِ.

* * *

إنها الساعةُ الواحدةُ بعد منتصفِ الليلِ، والساعةُ الثالثةُ من الانتظار...، المنزلُ خالٍ من أيِّ علاماتِ الحياةِ، غير أنَّ خطواتي في ممراتهِ تقلقُ المختبئين في غرفهم.

أبحثُ عن سعادتي في هذا الليلِ المعتمِ، أتخيّلُها تأتي منكِ وحدكِ حتى أتذكَّرَ أنَّ هناك ربٌّ كريمٌ يتواضعُ وينزلُ من سابعِ سماءٍ إلى سماءِ الدنيا الفانيةِ؛ ليجيب دعواتِ القلوبِ الحزينةِ ويعطي السائلينِ ويخففُ من آلامِ المساكين، فأتوضَّأ وألقي بسجادةِ صلاتي على الأرضِ، وأكبِّرُ وأخشعُ في صلاةِ وِتري، حتى يأتي وقتُ الدعاءِ فأرفعُ يديَّ عالياً مُتضرِّعاً للربِّ بأن يحيي من جديدٍ قلبي، ويهبهُ سعادةً وفرحاً، ويخفِّفُ عنهُ وطأةَ الحزنِ الكريهِ.

وما إن انتهيتُ من صلاتي ورفعتُ سجّادتي عن الأرضِ، حتى جاءت إجابةُ اللهِ لدعائي، جاءت لطيفةً ورقيقةً كرقَّةِ أناملَكِ التي كتبتْ لي تلكَ الرسالةَ الجديدةَ التي جعلتني ابتسمُ كطفلٍ بريءٍ لا يفقهُ العِتاب الجميلَ.

«رسالةٌ واردةٌ»

«أعتذر على تأخُّري بالردِّ، كُنتُ نائمةً...، ولكن لماذا لا تفرحُ يا هتان؟، أخبرني عن أسبابِ حُزنِك.»

وبسرعةٍ فائقةٍ رددتُ على رسالتكِ..

«رسالةٌ صادرةٌ»

«لا تُقلقي نفسَكِ معي يا حنين، أكملي نومَكِ، وأحلامٌ سعيدةٌ أتمناها لكِ»

«رسالةٌ واردة»

«لا لـن أنـامَ حتـى تقـولَ لـي لمَ أنتَ حزينٌ؟، ألـم تكنْ تريدُ فرصةَ العملِ هذهِ وبشدَّةٍ؟ ماذا تغيَّرَ الآن؟.»

وكم أحببتُ إصرارَكِ وشغفَكِ على معرفةِ أسبابِ حزني..

«رسالةٌ صادرةٌ»

«لم يتغيَّر شيءٌ يا حنين، غير أنّي لم أحصلْ على هذهِ الفرصةِ لكفاءَتي وامتيازي... بل حصلتُ عليها كمعونةٍ من قريبٍ لن يحبَّ حتى رؤية وجهي أمامَه في كلِّ صباحٍ».

«رسالةٌ واردةٌ»

«أنتَ تحزِنُ نفسَك بنفسِك يا هتان! لا تنظرُ إلى أمورِ الحياة بهذهِ الطريقةِ السوداء، أنجبْ من هذهِ الفرصةِ فرصةً أخرى تعيدُ بها بناء علاقتِكَ بخالك، فتكسبُهُ في صفِّكَ وتبني من خلالهِ مستقبلِكَ.»

وبسخريةٍ أجبتُ رسالتكِ..

«رسالةٌ صادرةٌ»

«لم أعلم أنَّكِ مستشارةٌ اجتماعيةٌ من قبل! هههههه»

فأجابتني ساخرةً منّي..

«رسالةٌ واردةٌ»

«ولم أعلم أنَّكَ صغيرُ العقلِ هكذا! هههههه»

«رسالةٌ صادرةٌ»

«لسـتُ بصغيرِ عقلٍ يا حكيمة! ولكنَّ الحزنَ هو مَن يسـلبُ قوّتي ويرميني بموجِهِ على شواطئ اليأسِ»

«رسالةٌ واردةٌ»

«هيا يا هتان، لا تقل هكذا... أعرفُ أنَّكَ رجلٌ، والرجالُ لا تيأسُ بسهولةٍ، اطرد هذا الشيطان الذي يلعبُ بعقلكَ، وكُن كما أنت، كما عرفتُ عنك.»

وبعد هذهِ الرسالةِ، اعترتني دهشةٌ كبيرةٌ، وتساؤلاتٌ كثيرةٌ، «كما عرفتُ عنك»!، وماذا تعرفين عني يا حنيني؟ هل كُنتِ تبحثين عن تفاصيلي كما كنتُ أبحثُ عن تفاصيلك؟ وهل كُنتِ مُهتمةً بيَّ كما أنا مهتمٌ بأمركِ؟

أنتِ تغوينني الآن بهذا الاهتمام، أنتِ تكبرين في داخلي أكثر وأكثر، وتعطينني المجال لأحبَّكِ أكثر. كان لابدَّ أن أسألَكِ عمَّا تعرفينهُ عنِّي، عن الصورة التي رسمتيها في خيالِكِ عنِّي، وإن كانت تلك المعرفةُ جاءت من بابِ الاهتمام، أم أنَّها معرفةٌ من بابِ الفضولِ لا أكثر، ولكنَّ رسالةَ وداعِك جاءتْ سريعةً تطلبُ منِّي النومَ وإراحةَ بالي من هذه الأفكارِ والتساؤلات، فأجبتُ طلبَكِ الصغيرَ، وودَّعنا بعضنا البعض بـ«تصبح على خيرٍ»، و«وأنتِ من أهلهِ».

* * *

(6)

صدِّقـي أو لا تصدِّقـي، لا أملـكُ سـبباً مقنعاً لأكتبَ لكِ، فلا شـيءَ سـيعيدُكِ إلى حدودِ مملكتي، ولا شـيءَ سيغيِّرُ من تعرُّجاتِ القدرِ التي أخذتْكِ بعيداً عن طريقي.

ولكني لازلتُ أكتبُ، لا مبالياً بالأسـبابِ، ولا مهتمّاً بالشـكلِ الذي ستنتهي عليهِ كتاباتي، أريدُ فقط مراوغةَ الحنينِ الذي يجري كطفلٍ حافي القدمين في صدري، والتغلُّبَ على حزني حين أصنعُ منكِ أنثى أخرى تنامُ في وسط أوراقي... حتى لا أشتاقُ لها كثيراً، وأُقبِّلها كثيـراً حينما أشـاء...، حتى ولو كانـت قُبلاتي على أوراقٍ صمَّاء.!

صدقـي أو لا تصدقـي، منـذُ أن أحببتُـكِ وأنـتِ كلُّ أفراحـي وأجمـلُ ابتسـاماتي...، كنـتُ الوحيـدةَ القـادرةَ علـى إضحاكي بلا صوتٍ وبلا كلماتٍ...، قربُكَ كان مصدرَ السعادةِ لأيامي، ورسائلُكِ كانت أجملَ رسائلِ الحبِّ والزمانِ...

ويجوزُ لكِ هُنا أن تصدِّقي فقط، أنَّكِ هبةُ اللهِ لقلبي الحزين ولروحي الشقيَّة، أنَّكِ نعمةُ الله لحياتي الفقيرةِ، وأنَّكِ كنزُ القناعةِ الذي اكتفيتُ بهِ عن البشرِ جميعاً.

فأنتِ واحدتي التي أخرجتني من كهفِ حزني، وواحدتي التي

قوَّستِ شفتاي للأعلى بعدما أرهقها كثيراً انحناؤها للأسفل.

كُنتِ قادرةً على إضحاكي وإبهاجي وإخراجي من دائرة الحزنِ ببساطةٍ وعفويةٍ. كُنتِ الوحيدة التي تعرف طريقها جيداً إلى قلبي من دون أن تتوه أو أن تستعين بدليل.

معكِ عرفتُ أنَّ سعادتي لا تتطلَّبُ أسباباً كثيرةً، فقط ابتسامةٌ منكِ أو رسالةٌ قصيرةٌ تحمل معها تصبيحةً أو تمسيةً كانت كافيةً بأن تجعل قلبي يبتسمُ وينبضُ فرحاً.

معكِ كان للحبِّ لوناً آخر، وشكلًا آخر، فأنتِ أنثى لا تتكرر، وبدرٌ يظهرُ في أولِ النهارِ ومع غروبِ الشمسِ ولا يتقيَّدُ بأيامِ التقويمِ. حُبُّكِ جعلني أنسى بساطتي، وجعلني أرتدي ألوان العشقِ، جعلني أكون شاعراً يتغزَّلُ بخصرِكِ، ومُفكِّراً أتعمَّقُ في تفاصيل روعةِ صُنعِكِ. حبُّكِ خلقَ قوانينَ جديدةً للزمنِ، فالساعةُ بقربكِ دقيقةٌ، واليومُ في غيابكِ دهرٌ، وتلك الثواني التي تضحكين فيها صارت مئةُ عامٍ من السعادةِ في قوانين زمني!.

أحببتُكِ، وأحببتُ تفاصيلكِ كلها... أحببتُ خجلكِ وكبريائكِ وغروركِ وشموخكِ وتواضعكِ. أحببتُ اهتمامَكِ الذي يطوِّقُني ويعيدُ تركيبي من جديدٍ؛ لأصبحَ كما يشتهي قلبُكِ.

تأتين في صباحي كحمامة سلامٍ تقفُ على كتفي وتغرِّدُ لي أجملَ الكلماتِ، وتختبئين في حقيبةِ أعمالي؛ لتشغليني بالحبِّ وتجعلي نهاري يمتلئُ بكِ وحدكِ. وإن حلَّ ظلامُ ليلي، كُنتِ القنديلَ الذي ينيرُ لي سقفَ السهرِ، والوسائدة التي تنامُ عليها همومي دون أنْ تُفيقَ.

أبحرنا سـوياً لحدودٍ خارجةٍ عن وطنِ الصداقة، حتى تحدثنا عن الحبِّ وعن آهاتهِ وأحلامهِ ووعودهِ الكاذبةِ البيضاءِ، وقُلتِ أنَّكِ لـم تحبـي يومـاً، وأنَّـكِ لا تريدين أن تحبِّي يوماً، ونسـيتِ أنَّنا في الحبِّ مسيَّرين لا مخيَّرين، وأن الحبَّ لا يعرفُ آدابَ الاستئذانِ.

وقلـتُ لـكِ أنَّ الحبَّ يشـبهُ المعركة إلـى حدٍّ ما، تحتاجُ لأن تُعِدَّ خططاً إستراتيجيةً تجعلك تتفوقين على منافسِك... هو معركةٌ ولكن بلا عدوٍّ، منافسُك هو حبيبُك، وهو مَن تريد أن تغلبهُ؛ ليقعَ في أسرِ قلبكَ دون أن يطالب يوماً بحريتهِ..

وما أجملَ تلك السجون التي تكون في الصدور...

وفـي معركـة الحـبِّ، تتغيَّـرُ مفاهيـمُ الحـرب كلِّهـا، فبدلَ أن تنشـر الخوفَ في صفوف منافسـك، تزرعُ شـجرةً من الأمانِ لتنمو بين أضلاعِ مَن تحبُّ، وبدلَ اسـتخدامِ السـهامِ القاتلة، ترمي عليهِ وابلاً من القُبلاتِ القاتلة! البنادقُ والقنابلُ وحتى الدباباتُ المقاتلةُ تكون على شـكلٍ آخر، شـكلٍ أرقّ وأجمل، كالهمسـاتِ الساحرة، والابتسـاماتِ الجذَّابة، والقصائدِ الغاوية.!

وفي معركةِ حبِّكِ كنتُ أنا الغازي على أرضِ قلبكِ، اقتحتُمها بكلمـاتٍ والقليـلُ فقـط مـن الأشـعارِ... لـم تكوني سـهلة الإيقاعِ والأسـرِ، كُنـتِ شـامخةً كرايةِ حـربٍ لم تذل يومـاً بالهزيمةِ، كُنتِ عالية الكبرياء كملكةٍ لم يخذلها يوماً شعبُها الوافي..ولكنَّكِ أنثى، والإناثُ ناقصاتُ عقلٍ.!

رُبما خلقكنّ الله هكذا لتقعنَ في فخِّ حُبِّنا نحنُ معشرَ الرجالِ، وربما لو كنتنَّ كاملاتِ عقلٍ لم تغرم يوماً فتاة!

وعلى نقيضِ نقصكنّ، خُلِقنا نحن الرجال بعقولٍ كاملةٍ، من أجلِ أن نستوعب فكرة الحبِّ والغرام، تلك الفكرة التي تستطيعُ أيُّ أنثى ناقصةُ عقلٍ فهمها واستيعاب أبعادها أكثر من أيِّ رجُلٍ ذي عاقلٍ كاملٍ.!

وأخبرتُكِ أنَّ تلك العقول الناقصات التي تعاهدُ نفسها قبل أن تعاهدَ حبيبها على الوفاء، على أن يكونَ كلُّ زفيرٍ أمنيةً باستنشاقِ عطرِ الحبيبِ في الشهيقِ القادمِ، وعلى أن تكون كلُّ ابتسامةٍ دمعةً في غيابِ المعشوقِ...

يا سيدتي تلك العقولُ الناقصةُ -وربِّ العباد- أكملُ من عقلِ رجلٍ يبتسمُ ليغوي امرأةً في الصباحِ، ويثملُ بشفاهِ امرأةٍ أخرى بعد زوالِ شفقِ الغروب...

تلك الكلمات كانت أول اختبارٍ أعددتيهِ لي في مدرسةِ حُبِّكِ، وكانت أولى المفاوضات بين قلبي وقلبكِ على طاولةِ الحبِ...، فبعد أن نفذَ صبري منكِ ومن الليالي التي أهيمُ فيها بكِ، لم أجد غير أسلوبِ المفاجأة منهجاً؛ لأعترفَ لكِ بحبِّكِ الذي ينمو في قلبي كشريانٍ رئيسيٍّ يضخُّ دماءَ السعادةِ في بدني.

«أحبُّكِ»... هكذا أرسلتُ أولَ طيورِ حُبِّي على شكلِ رسالةٍ قصيرةٍ هبطت على عُشِّ قلبكِ النائم. رسالةٌ قصيرةٌ حملت معها أمنياتي الطويلةَ المختصرةَ في أصدقِ كلماتِ الحبِّ وأقصرِ كتاباتِ العشقِ..

فجاء ردُّكِ بطيئاً كسلحافةٍ لا تعرفُ إلى أين هي ذاهبةٌ، ولكنهُ أخيراً جاء رغمْ الخوفِ العظيمِ الذي كان يحملهُ بين كلماتهِ..

«هتان! أظنُ أن رسالتكَ وصلت لي بالخطأ!»

وفي لحظةِ شجاعةٍ أجبتكِ: «لا يا حنين، رسالتي وصلت للشخصِ المقصود!»

ففي لحظاتِ الحبِّ الأولى، نحتاجُ للشجاعة، نحتاجُ لأن نصرخَ ونعترفَ بالحبِّ دونَ مبالاةٍ بردودِ أفعالِ مَن نحبُّهم، فتلك اللحظاتُ لا تحتملُ أيَّ افتراضاتٍ... إما أبيضٌ سعيدٌ، أو أسودٌ تعيسٌ!

وكم تمنَّيتُ أن يكون حظِّي في ليلةِ الاعترافِ أبيض فقط، فلا بدايةٌ أجملُ من البياض..

ساعةٌ كاملةٌ مرَّت، ولا جوابَ منكِ أتى ليريحَ قلبي القلِق. رسالةٌ جديدةٌ أخرى بدأتُ بكتابتها بعد أن طال انتظاري، رسالةٌ جديدةٌ أصِفُ لكِ فيها حبِّي لعينيكِ، وأخبرُكِ فيها كم من نبضةٍ أطلقَها قلبي حين كُنتُ منفرِداً بكِ في تلك الجولة الرقيقة...، وكم كانت تلك الرسالةُ أقصرَ من أن تحتوي حُبِّي لكِ، فتبعتها ثانيةً تحملُ وعوداً كثيرةً لا أزالُ أريدُ الوفاء بها رغم بردِ غيابكِ الذي يقرصني بمجرَّدِ التفكيرِ بكِ الآن وبتلك الوعود...

ثم رسالةٌ ثالثةٌ تخبرُكِ كيف أني أحببتُ وجودكِ، وأحببتُ تلك الليالي التي نقضيها سويّاً في الكتابةِ لبعضنا البعض، وكيف أنّني كنتُ أخفي هذا الحبَّ عنكِ، وأظهرهُ لكِ على طريقةِ الصداقةِ لكي لا تبتعدي ولا تجزعي من هذا الحبِّ، تلتها رابعةٌ، إلى أن وصلتُ إلى الخامسةِ فوضعتُ فيها آخر آمالي، وآخر محاولاتي...

ولا أخفيكِ بأنّني امتطيت غيمةً من السعادةِ عندما جاءت أسئلتُكِ تريدُ معرفة المزيد عن هذا الحبِّ الذي هطل فجأةً عليكِ

دون أن تشعُري بسحابهِ المتراكمِ في سمائكِ..

«رسالةٌ واردةٌ»

كيف؟ ولماذا؟ ولِمَ أنا؟! يا هتان أنتَ ترعبُ قلبي بهذا الحبِّ المفاجئِ، وتزلزلُ كياني بهذهِ الكلماتِ الثمِلةِ حُباً.!

«رسالةٌ صادرةٌ»

يا حنين، كيف أحببْتُكِ؟... أمممم لا أعلمُ حقّاً!، ولكنَّ عينيكِ كانت أجملُ كمينٍ وقعتُ فيهِ... لماذا؟ أمممم، لا أعلمُ أيضاً!، ولكنّي تعبتُ من الإبحارِ وأريدُ الوقفَ على مرسى شاطئكِ...

«لماذا أنتِ؟ لا أعلم والله...، ولكنّي أحبُّكِ، ويفعل الله ما يشاء!»

«رسالةٌ واردةٌ»

تعبتَ من الإبحارِ!، وتريدُ الوقوفَ على مرسى شاطئي!، لا شكَّ أنّك كنت سباحاً ماهراً!، ومرساي محطةُ راحةٍ لكَ من العومِ.!

«رسالةٌ صادرةٌ»

ما أذكاكِ، وما أغباكِ...، لو أني وجدتُ حوراً في البحرِ لما قصدتُ مرساكِ، ولو أني وجدتُ الراحة بين الموجِ لما تمنيتُ الاستلقاء على شاطِئكِ.!

«رسالةٌ واردةٌ»

هتان أنا لا أفهم ما تقولهُ!، لا أفهم كلمة «أحبُّكِ» تلك التي جاءت على غفلةٍ من قلبي.. لا أفهمك!، لا أفهم كيف تريدُ أن تحبَّ بكماء.!

«رسالةٌ صادرةٌ»

أنـتِ لسـتِ ببكمـاء... أنتِ «بكِ مـاءٌ» أنقى من أنهارِ الكلامِ، وأرفعُ من شعرِ الغرام... وأنا راضٍ عن قلبي حين أحبَّكِ دون أن يلتفت لعيبِ خَلقِكِ.!

«رسالةٌ واردةٌ»

تريدُنـي أن أصدِّقَـك؟ أن أفـرحَ بهـذا الحـبِّ كأيِّ فتـاةٍ عاديةٍ أخـرى؟ حسـنًا أنـا لسـتُ بفتاةٍ عاديـةٍ...، أنا حنيـن التي لا تعرف أبداً كيف تنطَقُ كلمة «أحبُّك.!»

«رسالةٌ صادرةٌ»

أنـا لا أريـدُكِ أن تصديقينـي فقـط، أنـا أريـدُكِ أن تؤمني بهذا الحبِّ الذي يكبرُ في داخلي يوماً بعد يومٍ، أريدُكِ أن تشـعري بهِ، وأن تعطيهِ فرصةً لينتقلَ من قمَّةِ قلبي إلى مدينةِ قلبكِ ويتحوَّل من حالةِ الحبِّ من طرفٍ واحدٍ إلى حالةِ التبادل...

وانقضت ساعاتُ الليلِ ونحن نكتبُ لبعضنا البعض، ونناقشُ قضيةَ حبِّي لكِ وخوفُكِ من أن يكونَ هذا الحبُّ زائفاً أو نزوةَ رجلٍ حزيـنٍ لـم يجد غيرَكِ ليحبَّها، حتى جـاءَ صوتُ الحقِّ بـــ«الصلاةُ خيـرٌ مـن النـوم»، فركلنا هواتفنا بعيـداً، وعقدنا هُدنةً بين قلبينا بأن نعود لمناقشةِ الحبِّ مجدداً رغم عدمِ اقتناعِ وجدانكِ بهِ.

تطهرنا، وخضعنا لربِّ العباد، وكنتِ أول دعائي وكنتُ أجمل دعائك، فهمســتُ بـــ «يا ربِّ، اجعلْها لي»، وهمســتِ بـــ «ياربِّ، جنِّبني حبَّهُ إن كان كاذباً».

وفي السماءِ كانت دعواتُنا تتسابقُ، ولا نعلمُ أيُّهما ستُستجابُ.

* * *

(7)

هكذا أحببتُكِ..

أولاً:

كانـت جميلـةً هـي صدفةُ لقائـكِ... ظننتُ أنّكِ مجـرَّد عابرةٍ تلقي البسمةَ على الشفاهِ الحزينةِ، ظننتُ أنّكِ غريبةٌ وسترحل قريباً..

ثانياً:

كُنتِ ماكرةً في الأولى، فأصبحتِ الصديقَ الذي أحبُّ حديثهُ، ويبتهِجُ القلبُ بقربهِ...

ثالثاً:

قمتِ باحتلالِ أيامي، وتمكنتِ من جعلِ يومي جميلًا بقربكِ... ومظلماً من دونِ شمسِ جبينكِ.

رابعاً:

لا أعلـمُ حقّـاً مـاذا حـدث في الرابعـة... ولكـنَّ قلبي أصبحَ يريدُكِ كثيراً.!

خامساً:

ولأولِ مرّةٍ أشتهي تقبيلَكِ حين تضحكين.!

سادِساً:

سهرتُ الليلَ أفكّرُ فيكِ...، واستيقظتُ مبتسماً؛ لأنَّكِ كُنتِ أولَ أفكاري.

سابعاً:

أحبُّكِ... خرجتْ هكذا من دونِ تحضيرٍ أو تمرينٍ... خرجت صادقةً، فكانت ذاتُ لحنٍ جميلٍ...

ثامناً:

احمرت وجنتيكِ، وبدأت ترتعِشُ ساقيكِ... فغادرتي، وشعرتُ بأنّني –ولأولِ مرَّةٍ منذُ أن التقيتُكِ– وحيداً!.

تاسعاً ولا عاشراً لها:

" أحبُّكَ يا مجنون"، جاءت محمولةً بين جناحي ملاكٍ لا يطير.!

أحبُّكَ جاءت كمعزوفةٍ فرنسيّة الرنين، جاءت مثخّنة الغنجِ والدلعِ اللذيذ. جاءت لتقسمني نصفين، نصفٌ يحبُّكِ، ونصفٌ يحيا بحبِّكِ. جاءت كشمسِ النهارِ المنتَظرِ، مُشرقةً ودافئةً لا تغطيها غيومٌ ولا سحابٌ. جاءت لتسرِقَ هذا القلبَ النابضَ في الصدرِ منِّي، وتجعلهُ ينبضُ بكِ ولكِ ومعكِ.

فبعد انتظارٍ طويلٍ، كانتظارِ عقيمٍ يتمنَّى إنجاب طفلةٍ، وكانتظارِ حُبلى تتمنَّى أن ترى النائم في بطنِها، كتبتِها وأحسستي بها وبلذَّةِ كتابتِها. كتبتِ: «أحبُّكَ وأخافُكَ وأحترسُ من هذا الحبِّ. كيف لك أن تجرفني معكَ وأنا التي تمشي حذرةً بجانب الجدران، كالإعصارِ المدمرِ أنتَ، ضربتَ مدينة صدري، وحملتني بين

رياحِكَ، وعصرت قلبي حتى أمطرَ من بعد جفافٍ. يا مجنون الهوى... أحبُّكَ وأنا في الحبِّ مبتدئٌ ومفعولٌ بهِ وأنثاكَ، وأنتَ الخبرُ والفاعلُ وياءُ ملكيتي!».

وقرأتُها ببطءٍ كطفلٍ للتوّ يتعلّم القراءةَ، كلمةٌ بعد الأخرى، سطرٌ بعد سطرٍ، ودهشةٌ بعد دهشةٍ، وإغماءةُ حبٍّ لا أستطيع أن أفيق بعدها ولن أفيق أبداً..

فأرسلتُ إليكِ: «أنتِ حنيني وسيدتي لما تبقّى من أيامي. يالله! أعجزُ عن الكتابةِ لكِ الآن، أعجزُ عن وصفِ بركانِ السعادةِ الذي تفجَّر بقلبي الآن... انتظري، أعطني فرصةً أستعيدُ بها توازُني، وأنظِّمُ بها دقاتِ قلبي.»

وأجبتِ وأنتِ السعيدةُ بذلك الحبِّ: «يا مجنون، دعكَ من هذا الجنونِ، واكتبها لي فقط، اكتب «أحبُّكِ»؛ لتدهشني وتزلزلني وتطفئَ نارَ شكّي...»، لن أكتبها فقط، بل سأقولُ لكِ أحبُّكِ كخطابِ رئيسٍ فائزٍ بالانتخاباتِ، ككلمةِ حاكمٍ منتصرٍ بعد الحروبِ، كنشيدٍ وطنيٍّ لبلادِ الحبِّ، كتغريدِ العصافير على أغصانِ الشجرِ، كغِناء المطربين في حفلٍ ممتلئٍ بالجمهور، كافتتاحيةِ مهرجانٍ أو كرنفالٍ عظيمٍ، كشموخِ صوتِ البرقِ بين الأعاصير».

فقلتِ: «سأكتفي بها مجردةً من أيِّ تشبيهٍ، سأكتفي بـ «أحبُّكِ» حين تخرجُ من قلبكَ لتخجلني وتبعثرَ أنوثتي ثم تلملم بعثرتي... يا مَن تجيدُ بعثرتي».

وبصدقٍ كتبتُ لكِ: «يا حنيني، لم أشعرْ بهكذا سعادةٍ أبداً، في الشهر الماضي على أقلِّ تقديرٍ، ولم أشعر بهكذا حبٍّ يغزوني

ويحتلُّني أبداً، في حياتي كُلّها على أقلِّ تقديرٍ!.»

* * *

صهرَنـي حبُّـكِ كقطعـةِ جليدٍ وحيدةٍ في بردِ القطبِ الشـمالي أشـرقتْ عليها شـمسُ الدفءِ، شـمسُ الحُبِّ، فانسـاب منها الماءُ على هيئةِ أمنياتٍ ورجاءٍ بأن لا تغيبَ شمسُكِ أبداً.

حبُّكِ علَّمني كيف أكون نهرَ أمنياتٍ، كيف أكون مطرَ دعاءٍ... علَّمني كيف أتوبُ وأغتسلُ من الذنوبِ؛ رجاءً لأن تجابَ أمنياتي، فتكوني لي يا حياتي.

حبُّكِ علَّمني كيف أكتبُ شِعراً جميلًا طويلًا كجمالِ جدائلِكِ الناعمةِ الطويلة.

حبُّـكِ يـا حبيبتـي علَّمني أن عيناكِ أجمـلُ طفلتينِ تقولانِ أنَّ هذهِ الحياةَ مجردةٌ من الفرحِ، من السعادةِ، من الحبُّ، من البهجةِ دونَ بريقِهما.

حبُّكِ علَّمني أن أكونَ صوتَكِ المفقودَ حينما ترغبين بالصراخِ، علَّمنـي أن أكـونَ الوطـنَ الـذي تجرين نحو صـدرهِ كطفلةٍ حزينةٍ، فترميـن أحزانَـكِ على صحرائهِ وتقولين: «هُنـا... يموتُ الحزن... هُنا لا يوجدُ حُزنٌ».

حبُّكِ الذي أعطاني حقَّ الفرحِ ها هو الآن يسلبُ حقوقهُ منِّي، ويهديني الحزنَ على شكلِ ذكرى أبت أن تموت يوماً.

أشهدتُ الله على حبِّي لكِ، وأشهدتُكِ على أن أبقى أسيراً في سجنِ صدركِ: «رضيتُ بكِ حُبّاً، ورضيتُ بعينيكِ ترفاً، وأشهدتُ الله بأنّي لن أنساكِ يوماً، وأنّي سأحملُكِ معي، في حضوركِ أو في

غيابـكِ، سـأحملُكِ كمـا تحملُ ضلوعي قلبي، وسأسـافرُ بكِ نحو سماءٍ ثامنةٍ، نحو جنّةٍ لا تطؤها أقدامُ نساءٍ أخرياتٍ.»

وابتسـمتِ حيـن قـرأتِ عهـدي، وسـافرتي كفراشـةٍ ترتشـفُ الرحيـقَ مـن زهورِ العشـقِ، ثـم وضعتِ يديكِ علـى واحةِ صدركِ البيضـاء وأجبـتِ: «وإنـي أُعاهدُ الله، وأُعاهدُكَ على أن تبقى نخلةً شامخةً في واحتي، لا شريكَ لكَ فيها، ولا شريكَ لكَ في مائها... إنّي أعاهدُكَ يا حبيبي أنَّ هذا القلب لن يعرفَ مجنوناً غيركَ، ولن ينبضَ بجنونٍ لغيركَ.»

تعاهدنـا علـى الحـبِّ وعلـى الإخـلاصِ، وأشـهدنا الله على صدقِ حُبِّنا، ثم بدأنا ننسجُ رداءَ مُستقبلنا معاً، ونرسمُ محيَّاهُ بأيدينا، وندعوا اللهَ بأن يُحيِنا إلى أن نتشـاركَ غطاءً واحداً، إلى أن يكون صدري وسـادتَكِ، إلى أن تكون عيناكِ أجملَ مشـهدٍ في صباحي، إلى أن أزرعَ بذرةَ زهرتنا - طفلتِنا - الأولى في رحمكِ، وإلى أن يبيضَّ شعرُكِ وينحني ظهري، فأكونَ لكِ أجملَ صُبغة شعرٍ وتكوني لي أنعمَ عُكازٍ أستند في مشيي عليه.

* * *

(8)

In his birthday, she was wondering «What will make him happy when he has everything?» she was desperate until she remembered that he does not have her!

أيُّ جنونٍ عِشناهُ معاً، وأيُّ تجربةٍ مثيرةٍ خضناها. كُنَّا كتوأمينِ سيناميينِ لا يستطيعُ أحدهُما العيشَ دونَ الآخر. كُنَّا كشمسٍ وقمرٍ نجري خلفَ بعضنا البعض، ونحيي بمطاردتنا كوكباً يُدعى الأرض.

أيُّ حبٍّ هذا الذي يرافقُني حيثما ذهبتُ، يجعلُ لظلِّي ظلّاً آخر، يجعلُ لفرحي فرحاً آخر، يجعلُني كسلطانٍ عظيمٍ يتباهى بكِ، يتباهى بصولجانتهِ المرصعةِ بزمرّدٍ وياقوت، يجعلُ هذهِ الأرضَ تدورُ تحتي، ويجعلُ غيمةَ الهذيانِ تمطرُ فوق رأسي.

كان حبُّكِ طقساً خيالياً لا يمكنُ التنبُّؤ بميعادِ حلولِ فصولهِ الأربعةِ، كأن أصحو على ربيعهِ عندما يأتي خيرُ الصباحِ عذباً مُتورِّداً من: «صباح الخير يا حبيبي»، التي تلقينها كرسالةٍ بريديةٍ في صندوقِ قلبي، وكأن يحلّ الليلُ بارداً مُتجمّداً من غيابكِ ومن غيابِ رسائلكِ عن صندوقي.

كان حبُّكِ أجملَ حُبٍّ عانقتهُ، وأبهى عشقٍ رأيتهُ، فلازالت تفاصيلُ لقائنا الحقيقي الأول موشومةً في ذاكرتي، لازلتُ أذكرُ

خجلـكِ الـذي كان يفضحُنا، ودهشـتي التي كانـت تصرخُ بداخلي بـ «يالله يالله... يا لجمالكِ... يا لروعتكِ».

أذكـرُ أنَّنـي كنـتُ قبل ذلك اللقاءِ خارجـاً مع صديقي الوحيد خالد، كُنَّا نضحكُ سوياً على مشهدِ الحذاءِ الناعمِ، وهو محلّقٌ نحو رأسِ ذاك الشـابِ الذي لم يُحسـن اختيارَ الفريسـةِ السهلةِ؛ ليتغزَّلَ بها على مرأى الجميعِ وليغويها بوسامتهِ.

حينها قلتُ ساخراً لخالد:

– ما أغباه... أيُطارِدُ فتاةً تخفي كلَّ شبرٍ من جسدها تحت عباءتها؟!

فأجابني وهو الخبيرُ بهذهِ الأمورِ:

– أكادُ أجزمُ بأنَّه كان يعلمُ بمواجهَته مصيراً كهذا.

فسألتهُ مُستغرباً: إذاً لمَ عاكسَها؟

– لأنَّ الصيدَ الصعبَ ألذُّ بكثيرٍ من الفريسـةِ التي تركضُ لصيَّادِها...

كلماتُ خالد جعلتني أفكِّرُ بحالةِ حُبِّنا... يا تُرى إن لم تبادليني هذا الحبّ سريعاً، هل سيكون حبَّكِ أجمل؟ يا تُرى هل امتناعكِ عني وتجاهلُكِ لحبِّي كان سيجعلُني أحبُّكِ أكثر؟، ولكني دون أن تفعلي هذا كلَّهُ أحببتُكِ جداً للحدِّ الذي يجعلُني أشهدُ بأن لا حياةَ إلا مـع عينيـكِ، ولا نعيـمَ إلا بين ذراعيكِ...، حمدتُ الله أنَّكِ لم تتجاهليـنـي ولـم ترمينـي بحذاءِ قدميكِ... حمدتُ اللـه أنَّكِ قُلتِ: «أحبُّك» قبل أن تموتَ ابتهالاتي.

وسـرعان ما انتهى لقائي بخالدٍ حين جاءت رسـالتُكِ حاملةً

مفاجأةً لم تخطر ببالي لحظةً واحدةً.

«في مثل هذا اليومِ، ولِدَ الرجلُ الذي أحبُّهُ كثيراً، ولِدَ الحبُّ الذي لم يولد إلا ليحبَّني...، في مثل هذا اليومِ أحبُّكَ أنا وتحبُّكَ سنيني... كل عامٍ وأنتَ حبيبي»

نسيتُ يوم ميلادي... فجئتِ حُبلى بيَّ، لتلديني من جديدٍ، لتخرجيني لدُنيا حُبِّكِ، لفردوسٍ راكنٍ بين ضعليكِ، فخرجتُ ضاحكاً من رحمِ عشقكِ، متفائلًا بأن هذهِ الحياةَ ستكون أسمى معكِ.

«ياه يا حبيبتي... كيف علمتِ بيومِ مولدي؟ لا أذكرُ أنَّني أخبرتُكِ مسبقاً بميعادهِ؟»!

وبكبرياءٍ أجبتِ: «أعرفُ تفاصيلَكَ الصغيرةَ منها قبلَ الكبيرةِ، فلا تظن أنَّني غافلةٌ عنك.»

«هههههه داهيةٌ أنتِ... حسناً، أين هديتي؟»

«هاه!... أمممم، لا تستعجل عليها كثيراً، أحتاجُ لأن أُعدَّ لكَ هديةً تليقُ بمقامكِ... يا أميري.»

«هل يحقُّ لي الآن أن أتكبَّر؟»

«تكبَّر مثلما تريدُ...، ولكن لا تنسَ أنَّك أميري أنا... ولدى ما سواي فقير!»

كُنتِ مغرورةً بي، تتباهين بي، وكأنَّني مزهريةٌ عتيقةٌ لا تصلحُ لغير شرفتِكِ. كُنتِ تدركين تماماً أنَّني سأتوهُ إن رحلتُ إلى وطنٍ غيركِ.

وبشغفٍ انتظرتُ هديتَكِ، كُنتُ شديدَ الإلحاحِ، أذكِّرُكِ بها بين الحينِ والآخر... كنتُ أريدُ تذكاراً منكِ أُعانقهُ كلَّما غبتِ، كنتُ

أريـدُ تـذكاراً أحتفـظُ بهِ لسـنينٍ طويلةٍ، حتى يأتي يـومٌ أنفثُ الغبارَ عنه، وأقولُ لأطفالي: «اقتربوا وشاهدوا أولى هدايا أمِّكم».

انتظرتُ وانتظرتُ... حتى جاءتْ أجملُ هدايا الله، وأرقُّ هبةٍ من واهبِ السماء.

«رسالةٌ واردةٌ»

هتان... هل تريدُ هديّتَك؟

وبشوقٍ عظيمٍ أجبتُكِ: «أكيـــــــــد!»

«إذاً لا تنمْ هذهِ الظهيرة... سأتركُ لك الهديةَ في غرفةِ الغسيلِ الخارجيّةِ، تعرفها صحيح؟»

«نعم أعرفُها... ولكن كيف ستضعينها هناك؟!»

«لا تسـأل الآن كيـف... ولكـن ضـع هاتفكَ بجانبـكَ وانتظرْ رسـالتي...، بالمناسـبة، لا تذهبْ لأخذِها إلا وأنت مُتأنّقٌ، واحذر أن يراك أحدٌ!»

متأنّـقٌ! وحـذرٌ!، يـا تُرى ماذا يدورُ في رأسـكِ أيّتُها العاشـقةُ المجنونةُ؟! سألتُكِ كثيراً لمَ تريدينني أن أكونَ متأنّقاً، لما تريدينني أن أكـونَ حـذراً؟، لماذا هذهِ الطلبات، وأنا سـأذهبُ لغرفةِ غسـيلٍ منفيةٍ في آخرِ زوايا البيتِ؟، سألتُكِ كثيراً ولكنَّكِ تجاهلتِ نداءاتي، ولم تجيبي بشيءٍ غيرَ أنَّ الصبرَ مفتاحُ سعادتي!..

كُنَّـا يومهـا فـي بدايـةِ الصبـاحِ، وما أبعد الظهيـرة عنَّا، صرتُ أعمـلُ بتملّـلٍ، أريـدُ أن ينقضـي هذا الصباحُ سـريعاً، أريدُ أن أعودَ للمنـزلِ وأكـونَ قريبـاً مـن غرفةِ الغسـيلِ، يا لحبِّكِ جعـلَ من هذهِ الغرفةِ الصغيرةِ المهمسةِ شيئاً أشتاقُ لرؤيتهِ.

وكما تمشـي السلحافةُ على مضمارِ السباقِ انقضى صباحي، وعدتُ مُتشوِّقاً إلى المنزلِ... فتحتُ البابَ وإذا بجدَّتي تقولُ لي: «انتظر، انتظر يا هتان... حنين ارتدي عباءتَكِ يا ابنتي...».

آه... أنتِ هُنا! متى جئتِ ولماذا لم تقولي أنَّكِ جئتِ؟، آهٍ منكِ... لو علمتُ أنَّكِ هنا لَما انتظرتُ لأن ينتهي وقتُ عملي... تبّاً أضعتي عليَّ فرصةَ استراقِ النظرِ إليكِ... أضعتي عليَّ فرصةَ الاختباءِ خلفَ النافذةِ من أجل أن أرى عينيكِ...

ارتديتِ عباءتَكِ، وسمحت لي جدَّتي بالعبورِ أمامكِ...، عبرتُ وعيناي تنظرُ للأرضِ، وكنتُ أعلمُ أنَّكِ تنظرين إليَّ، كنتُ واثقاً أنَّ عينيكِ لم تدعْني أعبرُ أمامها دون أن تلتقطَ صوراً عديدةً لي لتحفظينها في ذاكرتكِ... عبرتُ بابتسامةٍ على ثغري، ابتسامةِ مكرٍ وحبٍّ لتلك الناعمة التي تنتظرُ إلى جسدي، وما إن دخلتُ غرفتي حتى جاءت كلمةُ «أَحبُّكَ» سريعاً منكِ، رددتُ عليها بـ «أموتُ في حبِّكِ»، ولم أكن أدرِكُ وقتَها أنَّني أحيا بحبِّكِ، فحبُّكِ أجملُ حياةٍ، وما دونهُ موتٌ أسودٌ...

ورحتُ أفكّرُ عميقاً بما جلبتهِ لي، وبما ستهدينني إيَّاه... رُبَّما باقةَ وردٍ، ولكن كيف ستخفينها عن أنظارِ جدَّتي وأنتِ معها الآن؟!... أو رسالةً منكِ، تكتبين لي فيها أنَّكِ تحبينني، أنَّكِ تريدينني؟، أو صورةً لكِ، صورةً لقمرٍ انتظرتُ رؤيتَهُ كثيراً؟!... فأنا لم أركِ أبداً، وأحببتُ عينيكِ أولاً، وأغمضتُ عينيَّ عمَّا تبقَّى من حُسنِكِ... أو دميتكِ!، تلك الدميةُ التي كنتُ أكرهها كثيراً في كلِّ مرَّةٍ تخبرينني أنَّكِ لا تستطعين النومَ إلا عندما تحتضنينها!...

لا أدري، لا أدري... ولكنّني سأقبلُ بالقليلِ منكِ، سأقبلُ بأيِّ ثمرةٍ تقطفينها لي من أغصانكِ... فالقليلُ منكِ كثيرٌ في قلبي

مضت خمسةٌ وثلاثون دقيقةً من التفكيرِ... حتى جاءتِ اللحظةُ المرتقبة.

«رسالةٌ واردةٌ»

«حبيبي، اذهب لأخذِ هديتِك الآن، ولكن أرجوك كُن حذراً أن يراك أحدٌ وأنت في طريقكَ».

رميتُ هاتفي، وارتديتُ ثوبي، وبدأتُ أمشي بسرعةٍ؛ لكي لا يراني أحدٌ وأنا أخرجُ.

فقد كنتُ متشوقاً لرؤيةِ ما وضعتهِ لي، وكأنّني طفلٌ لم يُهدَ لعبةً من قبل.

أسابقُ خطواتي نحو تلك الغرفةِ الصغيرةِ المظلمةِ حتى وصلتُ إليها، فكان بابهُا مفتوحاً قليلًا، فحشرتُ نفسي في تلك الفتحةِ الصغيرةِ وأغلقتُ البابَ خلفي.

* * *

(9)

آهٍ منكِ... قتلتيني... آهٍ منكِ... كسرتيني... آهٍ منكِ يا حنيني، ليتَ الأيامَ تعودُ بنا، أو ليتَ هذهِ الأرضَ تنشقُّ الآن وتبلعُنا، ليتنا لم نحبّ بعضنا يوماً، ليتنا التقينا مُصادفةً ثم مضينا في طريقينِ لا تجمعُهما نقطة التقاءٍ. ليتكِ امتنعتي عن حبِّي، لكان الأمرُ أهونَ على قلبي، لقلتُ: اذهبي ولا تعودي، يا مَن لا تدركين معنى نبضي الجميل، أو غبيةٌ أضاعت على نفسِها قُربَ الرجلِ الوحيدِ الذي قد يقبلُ نقصَها بكمالهِ، ولكنتُ الآن أضحكُ بدلاً من البكاءِ على الورقِ.

أخبريني ماذا أفعلُ حين يجنُّ جنونُ حنيني، أخبريني ماذا أفعلُ حين أتذكرُكِ، حين أتذكرُ هديتكِ، وحين أتذكرُ لحظةَ مصرعي في محرابِ شفتيكِ؟. أخبريني أيُّ زوايا الذكرى لا أجدُكِ فيها، أخبريني أيُّ متاهاتِ الحبُّ لا تكونين أنتِ نهايتها، وأين أجدُ قمراً لا يرسمُ وجهكِ على سطحهِ.

ليتكِ لم تقولي «أحبُّكَ» يوماً، لبقيتي في عينيَّ حُلماً، ولبقيتُ في مُحيطكِ صديقاً، صديقاً لا يموتُ حزناً إن رحتِ عنه. أخبريني الآن لـمَن أشكي هذا الحزنَ الثائرَ في صدري، لـمَن أُغنِّي أجملَ ألحاني، لـمَن أكتبُ أجرأ قصائدي، ولـمَن أشكو جراحَ قلبي.

كاذبٌ لو قلتُ لكِ: تجاوزتُ مرحلةَ غيابكِ وأنّي سعيدٌ في حياتي، بعدما رحلتِ من حياتي، وأنَّ الليلَ لازالَ جميلًا، أسهرهُ فرِحاً وسعيداً، وأنَّ الصباحَ لازال فاتناً، أقضيهِ مبتسماً ومتفائلاً، وأنّ يومي يسري بسلامٍ، دون دموعٍ وآهاتٍ.

كاذبٌ يا قاتلتي، لو في يومٍ أخبرتُكِ: أنّكِ لستِ سوى فترةُ طيشٍ ومراهقةٍ، وأنَّ حُبَّكِ اندثر في قلبي من يومِ هجرتِ صدري، وأني لم أعد أُقلِّبُ ذكرياتي معكِ، وأنّي لا أسرحُ فيكِ ولا أعبرُ حدوداً لأرتجيكِ، ولا أحِنُّ لعينيكِ ولخديكِ وكفيكِ، وأنّي تغلَّبتُ عليكِ، ونسيتُ كيف كانت لذيذةً شفتاكِ!.

كاذبٌ لو قلتُ لكِ: أنَّ الحنينَ -يا حنيني- لا يستوطِنُني ولا هو دائماً يقتلُني، وأنَّ أشواقي ماتت منذُ أن طارت محبتي من قلبكِ. كاذبٌ يا حنيني حين لا أشتاقُ إليكِ، وحين أكتبُ لغيرِ خدَّيكِ، وحين أُصدِّقُ أنّني نسيتُ مَن أنتِ... يا كلَّ ما أملكُ! وأكذب أنا حين أقول: أنّي بخيرٍ وعيناكِ بعيدتانِ كلَّ البعدِ عن ناظري.

أتسائلُ دائماً، كيف لي أن أنساكِ؟، كيف لي أن لا ألتفتَ نحو بقاياكِ المتناثرةِ في أرجائي؟، كيف لي أن أعبرَ أمامَ تلك الغرفةِ الصغيرةِ دون أن أشعرَ بغصَّةٍ عميقةٍ في حنجرتي؟. فلا أقولُ اشتقتُ إليكِ... أمازلتِ تذكرين؟ ماذا لقيتُ في تلك الغرفةِ؟ ماذا كانت هديتُكِ؟ ماذا كان تذكارُكِ؟، أمازلتِ تدركين حجمَ تذكراكِ؟ وحجمَ دهشتي بهِ؟

وإن لم تذكري تعالي أُذكِّركِ... تعالي أُذكركِ بتلك اللحظة

التي دخلت فيها تلك الغرفةَ، وأغلقتُ البابَ خلفي دون أن أعلمَ مَن يختبئُ فيها، أغلقتُ البابَ ثم استدرتُ؛ لأبحثَ عن صندوقٍ أو علبةٍ ما، فما وجدتُ أمامي غير عيناكِ، تحدِّقُ بي بخوفٍ، بشوقٍ، وبخجلٍ.

وجدتُكِ أنتِ يا أجملَ هدايا القدرِ، وجدتُكِ مختبئةً بين سلالِ الغسيلِ كلؤلؤةٍ مفقودةٍ، ترتعشُ يديكِ من البردِ، فارتعشَن قلبي من جمالِ عينيكِ. وقفتُ أمامكِ حائراً ومندهشاً، لا أعلمُ ماذا أفعل في هكذا لقاءٍ؟، ولا أعلمُ، أحلمٌ هذا الذي أنا بهِ الآن أم أنَّكِ الحلمُ بذاتهِ.

أربعةُ خطواتٍ تفصلُني عنكِ، لا حواجز بيننا، وحيدانِ وقلبانا يترقبانِ، مُرتديةٌ عباءتكِ ويُدكِ ممسكةٌ بلثامكِ، وكأنَّكِ تخافين أن تبانَ حُمرةُ خدّيكِ المشتعلانِ خجلاً.

عيناي تحدِّقُ مباشرةً في عينيكِ، وعيناكِ تحدقُ في بلاطِ الأرضِ... حتى رفعتِ رأسَكِ وبرقتْ مُقلتيكِ...، نظرةٌ بنظرةٍ... والبادئُ أظلم!، فابتسمتُ واقتربتُ أكثر منكِ، وفي كلِّ خطوةٍ نحوكِ شعرتُ بأنّي أطيرُ نحو جنتي.

«حبيبتي، آهٍ منكِ... ماذا فعلتِ بي، أترمينني في هاويةِ الغوايةِ ببساطةٍ هكذا... أحبُّكِ يا مجنونة... أحبُّكِ يا شقية... أحــبُــ»، وما ردعَني عن إتمامِ ثالثةِ الحبِّ إلا عناقٌ اقتحمتِ بهِ صدري، وشددتِ يديكِ حولَ ظهري، وكأنَّكِ تريدين أن تختبئي بين ضلوعي، وتطوقينني بأحرِّ حنانٍ.

كنتُ أعتقدُ أنَّ الإناثَ ذواتُ سواعدٍ ضعيفةٍ هشَّةٍ، إلا أنَّ

العناقَ يجعلُهنَّ ذواتُ زنودٍ عاصرةٍ! لقد تمنيتُ أن لا ينتهي ذلك العناقُ، تمنيتُ أن يتوقَّفَ الزمانُ بي وأنتِ في أحضاني، أو أن نتحوَّلَ لتمثالين مُتعانقين يرانا كُلُّ المحبِّين في ميدانِ العشقِ.

ووضعتُ يداي على رأسكِ ورحتُ أشاغلُ شعرَكِ بأصابعي، وأهمسُ بكلماتِ الحبِّ التي تجعلُكِ تدركين كم هو جميلٌ عناقي، فسقط لثامُكِ وبانَ وجهُ جنَّتكِ، بانَ وجهُ القمرِ الحقيقي الذي أنارَ عتمةَ فؤادي.

كنتُ واثقاً أنَّكِ جميلةٌ، ولكنَّني لم أكنْ أعرفُ أنَّكِ جميلةٌ للحدِّ الذي لا يمكنُ لعقلي استيعابهُ. لم أكنْ أعرفُ أنَّ في خدِّكِ كمينٌ محفورٌ يُدعى غمازة، لم أكنْ أعلمُ أنَّ شفتيكِ تنافسُ ألوانَ الورودِ الزهريةِ وتغلبُها بلونها، ولم أكنْ أدركُ أنَّ تلك «الغرَّة» المنسدلةَ على جبينكِ مدعاةٌ للفتنة.

حين رأيتُ وجهَكِ شعرتُ بأنَّني نورسٌ قطعَ المحيطَ، حتى هبطَ على شاطئِ جزيرةٍ مفقودةٍ... جزيرةٍ ذاتِ كنوزٍ وياقوتٍ، لم يمسسها من قبلي قرصانُ بحرٍ لئيمٍ.!

وبدأ شيطاني بالهمسِ اللعين: يا مُغفَّل... أتكتفي بالتحديق وأمامكَ أُنثى أشهى من تذوقِ النبيذِ العتيق؟!

فأجبتهُ بعقلٍ مفتونٍ: لا والله لن أكتفي بالتحديقِ بها، لن أكتفي من عناقها حتى أتذوق السكرَ من ثغرها!

وذبتُ كالسكرِ في كوبِ شايٍّ يجيدُ إذابتي، وغرقتُ في نهرٍ نقيٍّ عذبٍ يسري بين شفتيكِ، وبين خدَّيكِ وشفتيكِ ثملتُ وترنَّحتُ.!

لا أذكرُ ماذا حصل بعدها، أو أنّي أذكرُ ماذا حصل بعد القبُلةِ، ولكنّي لا أريدُ أن أذكرَ، ما أذكرهُ حقّاً هو أنَّ عقاربَ ساعتي جُنَّ جنونُها، وراحت تدورُ بسرعةٍ عجيبةٍ حتى رنَّ هاتفُكِ ليبلغَكِ بوصولِ السائقِ، أشرتِ لي بإشاراتٍ لم أفهمْها، ولكنَّها كانت تدلُّ على أنَّكِ سترحلين الآن، فعانقتُكِ مرّةً أخرى عناقًا يسألُكِ البقاءَ. وهممتِ بارتداء عباءتَكِ التي سقطتْ عنوةً، ثم تحسّستِ وجهي بيديكِ، ومرَّرتِ أصابعَكِ في حديقةِ ذقني وقبَّلتِ يديَّ كفتاةٍ شاميّةٍ تطلبُ الرضى من حبيبها... ورحلتِ.

رحلتِ وبقيتُ وحدي هناك أطالعُ زوايا الغرفةِ وأتذكَّرُ ماذا حدث فيها؟ فابتسمُ وأضحكُ على جنوننا، رحلتِ وبقي عطرُكِ يرافقنُي...

خرجتُ من تلك الغرفةِ مُنتعشاً، خرجتُ بروحٍ أخرى، روحٍ تُقسمُ بأن لا تبتعدَ أبداً عنكِ، وأن تقضي باقي عُمرِها رهينةً لتلك القُبلةِ، لذلك العناقِ، ولذلك الجنونِ الجميلِ.

خرجتُ رافعاً رأسي للأعلى، أنظرُ للحياةِ بنظرةِ تفاؤلٍ كمريضٍ شُفيَ للتوِّ من أوجاعهِ. أمشي وأشعرُ أنَّ الجدرانَ والأبوابَ وبلاطَ الأرضِ ينظرون نحوي، ويحاولون اكتشافَ من أين أتت تلك البقعةُ الحمراءُ الداكنةُ على عُنقي؟، أشعرُ أنّني في دائرةٍ محاطٌ بنظراتِ الشكِّ ولكنّي لا أبالي بنظراتهم، وإن سألوني سأقولُ نحلةٌ شربت من رحيقي!

* * *

(10)

تعلَّمتُ الكثيرَ منكِ، ويا ليتني علَّمتُكِ كيف لا ترحلين عني..

* * *

قد يُحبُّ الشاعرُ عشرةَ نساءٍ، ولكنَّهُ لن يكتبَ إلا في واحدةٍ منهنَّ... تلك الواحدةُ هي مَن علَّمتُه كيف يكتبُ قصيدةً... كيف يخلقُ نصّاً يحتويها...، تلك الواحدةُ هي مَن علَّمتهُ حروفَ الحبِّ وأبجديةَ العشقِ؛ لكي يكتبُها حُبّاً حينما تبهجُهُ بقربها، ويكتبُها حُزناً حينما تقتلهُ بغيابها.

ولكنّي لم أكن شاعراً من قبل أن التقيكِ، لم أكتب يوماً في أنثى غيركِ، ولم أعرف كيف تكتبُ الأنثى، وكيف تُكتبُ القصيدةُ للأنثى...، أنتِ مَن جلعتني أنسى بساطتي في التعبيرِ عن حبّي لعينيكِ، جلعتني أرتدي ثوباً آخر مطرزاً بكلماتٍ وحروفٍ تحملُكِ معها على سطورِ العشقِ.

سأكتبُكِ حين لا يبقى كلامٌ يُقال
سأكتبُكِ بلغةٍ جديدةٍ وفريدةٍ
لغةٌ لم تُقرأْ من قبل...
لغةٌ لا تُقرأْ إلا بالقلبِ

لغةٌ لا تحتاجُ لحروفٍ كثيرةٍ
فقط... ألفٌ وحاءٌ وباء
تتلوهم كافٌ كبيرةٌ!
سأكتبُكِ شِعراً مُلحَّناً...
وسطراً بالغزلِ مُقنَّناً...
سأكتبُكِ لتحيا بكِ الأوراقُ
ولترقصَ على ذكراكِ كلُّ الأقلام
فـتضحكُ كلمةٌ... وتذوبُ كلمةٌ
ويولدُ سطرٌ... وينحني سطرٌ
حتى تخرجَ من بينِ الكلماتِ
قصيدةٌ فرنسيّةُ الرنينِ...
عذبةُ الترنيمِ كعزفِ نايٍ عظيمٍ
فـتغبطكِ عليها فتاةٌ
أحبَّت وتمنَّت
يوماً تُكتبُ فيها قصيدةٌ
ترقصُ عليها كلُّ إناثِ القرية!

وابتسمتِ عندما قرأتِ شعري، وعضضتِ شفتيكِ خجلاً، وضممتِ دُميتَكِ ولم تجدي غير «أحبُّكَ» مخرجاً لكِ من الخجلِ.

* * *

بعد ذلك اللقاء... أو بعد ذلك العناق كان لابدَّ من أن أتعلَّمَ لغةً جديدةً، لغةً أستطيعُ أن أفهمَكِ أكثر من خلالها، أن أفهمَ تلك

الإشـارات التـي صعنتيهـا بيديـكِ يومَ اللقـاءِ دون أن أدركَ معناها، ولـم أجـد غيـرَكِ يا أجملَ معلِّمةٍ في حياتي. وكم كُنتِ فرحةً حين أخبرتُكِ بأنّني أريدُ أن أتعلَّمَ لغةَ الإشارةِ، وسألتيني: حبيبي... لما تريدُ أن تتعلَّمها؟

وأجبتكِ بحبٍّ: لكي أفهم غضبَكِ وخجلَكِ وكلمةَ أحبّكَ التي تصنعينها بيديكِ..

– لا تقلق، غضبي وخجلي ستراهم على وجهي قبل يدي..

– ماذا عن «أحبُّكَ»؟

– أمممم حسناً، حينما أريدُ أن أقولَ «أحبُّكَ» سأشير بإصبعي نحوك ثم سأغرسُه بوسطِ صدري..

– الله ما أجملهُ من تعبيرٍ... هيا هيا أريدُ أنا أراكِ وأنتِ تفعلينها...

– يا مجنون، كيف ستراني؟

– الأمرُ بسيطٌ جداً... لديكِ «سكايب»؟

– أنت مجنونٌ فعلًا!

– هيا يا حنيني، أريدُ رؤيتكِ...

– حـدد طلبـكَ يـا هتـان! تريدُ أن ترانـي... أم تريدُ أن تتعلَّم لغةَ الإشارةِ منِّي!

– أريد الاثنينِ معاً!

ولأنَّكِ عاشقةٌ مغرمةٌ بالذقنِ لم ترفضي طلباً يضعُ ذقني أمام ناظريكِ...

تلك الليلةُ كانت جميلةً بكلِّ جنونها، ففي الوقتِ الذي كُنتِ

ترتدينِ فيه أجملَ فساتينكِ وتكحلين مُقلتيكِ وتضعين الأحمر على شفتيكِ، كُنتُ أنا أهذِّبُ ذقني وأبتسمُ لمرآتي وأسألُها: «ما رأيُكِ؟ هل ستعجبُ أكثر بي؟»، وأشعرُ أنَّها تجيبُ بـ «لا تقلق، فإعجابُها بكَ فاقَ حدودَ الإعجابِ!».

واستلقيتُ أمامَ شاشةِ حاسبي أنتظرُ تلك العلامةَ الخضراءَ التي تبشِّرُ بحضوركِ. وعلى عكسِ ما فعلتُه ساعتي يومَ لقائكِ، مضت دقائقُ الانتظارِ ببطءٍ يشعلُ نيرانَ شوقي، وفي كلِ دقيقةِ انتظارٍ كنتُ أتخيَّلُكِ، أتخيلُ ماذا سترتدين لي وبأيِّ طريقةٍ ستبعثرين شعركِ؟!.

آهِ على شعركِ، آهِ على نهرِ الفتنةِ المنتصفُ بين شلالاتهِ... أشتهي مُشاغلتَهُ بأصابعي إلى أن تنامي على صدري، ومداعبتَهُ بأناملي حين تغسلينهُ بـ«الشامبو»!

تخيلتُكِ كثيراً ورسمتُ حُسنَكِ في ألفِ لوحةٍ خياليَّةٍ، وحين ظهرتِ صارت قبيحةً كلُّ لوحاتي!، لا شيءَ ينصفُ حسنَكِ، لا النصُّ يستطيعُ أن يجيدَ رسمَهُ ولا ألفُ روايةٍ تقدرُ على استعيابِ صفاتهِ... طاغيةُ الحسنِ أنتِ لحدٍّ أن تلاحقَكِ لعناتُ النساءِ حين تعبرين أمامهنَّ فيتلاشى حُسنهنَّ في الهواءِ.!

وبالرغم من أنَّه لقاءٌ افتراضيٌّ في عالمِ افتراضيٍّ إلا أنَّني شعرتُ أنَّكِ حقيقةٌ أمامي وكأنَّني أراكِ للمرَّةِ... للدهشةِ الأولى.. لنبضةِ الحبِّ الأولى!

كان جمالُكِ مُربكاً، يأكلُ صوتي ويجعلُني أتحدَّثُ بلا كلماتٍ... كان أسراً، لا يعبرُ أحدٌ أمامهُ دون أن يفقدَ قلبَهُ... ولشدَّةِ طغائهِ تجمَّدتُ أنا أمامَ شاشتي، أنظرُ إليكِ... أنظرُ لشفتيكِ،

لعينكِ، لذلك المفرقِ الناعمِ بينَ تلالِ صدركِ!

وفجأةً اختفت صورتُكِ من أمامي، وحلَّ مكانها سوادٌ قطعَ لحظاتِ استمتاعي بمشاهدتكِ، ظننتُ أنَّ الاتصال قد انقطع، إلا أنَّ ذلكَ الصندوقَ الصغيرَ في أسفلِ الشاشةِ نبَّهني برسالةٍ منكِ.

– هتان... هل ستفعلُ هذا طوال محادثتنا؟! لن أعيدَ تشغيلَ الكاميرا عقاباً لك!

– وماذا عساي أن أفعل؟! جميلةٌ جميلةٌ أنتِ!، ولا أستطيعُ فعلَ أيِّ شيءٍ في حضرتكِ!

– حسناً استمر على هذا الفعلِ ولن تراني مرّةً أخرى!

– لا لا!! سأكون مُهذَّباً!

– وعدٌ؟

– وعدٌ.

– أحبُّكَ..

– وأنا أحيا بحبِّكِ..

كُنتِ تخجلين من نظراتي تجاهكِ، تخجلين من رؤيةِ الدهشةِ في بؤرةِ عينيَّ، فتهربين منِّي لأنَّني فقط أذوبُ حينما أراكِ!

عادت صورتَكِ من جديدٍ أمامي، وبدأَ أولُ فصولِ التعليمِ...، كُنتِ تشيرين بيديكِ ثم تكتبين ماذا تقصدين بهذهِ الإشاراتِ، فتعلَّمتُ منكِ كيف أصنعُ حرف الهجاءِ بيداي!، وكيف أجعلُ الشمسَ تشرقُ من كفي وتغربُ في راحةِ كفي الأخرى، وكيف أمسحُ على صدري لأقولَ لكِ أنِّي بخيرٍ!.

لقد كنتُ تلميذاً نجيباً فذّاً، يسألُ عن الصغيرةِ والكبيرةِ، لا

يغفـلُ عـن أيِّ معلومةٍ تذكَرُ، يلقـي كلَّ انتباهِهِ لمعلِّمتهِ التي تكافأهُ بقُلبةٍ تُبسمُ قلبَهُ وثغرهُ...

* * *

استـمرَّت لقاءاتُنـا الافتراضيـةُ لأيـامٍ كثيرةٍ، خـلال تلك الأيامِ كبرت علاقتُنا وأصبحنا قريبين من بعضنا كرئتينِ في صدرٍ واحدٍ.

كان كلُّ شـيءٍ يمهِّـدُ الطريـقَ لـي كـي أطرقَ بـابَ بيتِها، كان كلُّ شيءٍ يقولُ لي: اذهبْ وطوِّقْ إصبعها بخاتمٍ وعهدٍ غليظٍ بينك وبين أبيها.

لم أكنْ بحاجةٍ لشـيءٍ يُكلِّمُني لأتقدَّم لها، فقط كنتُ بحاجةٍ لأكملَ نصفَ ديني بها، ولأكملَ شـريطَ السـعادةِ في حياتي حينما أكون أباً لطفلها.

كنتُ حين أتخيَّلُ أنَّها ستكون زوجةً لي، أشعرُ بدغدغةٍ ناعمةٍ فـي شـرايين قلبـي، دغدغةٍ تضحُكني كثيـراً كطفلٍ في المهدِ. كنتُ أشـعرُ بأنَّنـي سـأقبلُ على أيـامٍ مليئةٍ بالحـبِّ والفرحِ، أشـعرُ بأنَّني سـأقبلُ على صباحاتٍ رقيقةٍ تشـرقُ من عينيها، وأمسـياتٍ حمراء تختبئُ في أحضانها.

تلك اللحظةُ حينما تطلقُ العنانَ لمخيّلتكِ نحو مستقبلٍ ترسمهُ بنبضـاتِ قلبِـكَ وبأمنياتـك مـع مَـن تحبُّ رؤيتها، مـع مَن تريدُ أن تستيقظَ بسببِ شعرها المبعثرِ على الوسائدِ، مع مَن تتمنَّى أن تقبِّلَها يوماً بلا إثمٍ.

تلك اللحظةُ جميلةٌ جدّاً!

لحظـةُ العـومِ على مـوجِ الخيالِ جعلتني أمشـي بقدماي نحو

طريقِ حتفي..

مشـيتُ بقدماي نحو أمّي... أمّي التي أفنتْ عمرَها في سـبيل سـعادتي وسـعادةِ أختـاي، اليوم هـي تمزِّقُ قلبي إرباً إرباً، وتلقي بأجزائهِ في عمقِ بحرِ الحُزنِ...، أمّي التي أحبُّها جداً جداً ولم أظنّ أنّني سأكرهُ قولها يوماً، اليومَ كرهتُ قولها وتفكيرها ولم يشفعْ لها فـي قلبـي إلا أنّها حملتني تسـعةَ أشـهُرٍ في رحمهـا، وأنَّ جنَّةَ ربِّي تحت قدميها.

كيفَ لكِ يا أمّي أن تمنعيني عن سعادتي، أن ترفضي أجملَ قـدرٍ كان سـيُكتبُ لـي؟... كيف لـكِ أن تألميني هكذا، وأنتِ التي سهرتِ ليالٍ طويلةٍ تداوين أوجاعي؟، كيف لكِ أن تقولي «لا» في وجـهِ ابتهالاتـي، وأنـا طفلُكِ المدللُ الذي لم يسـمع من قبل كلمة «لا» منكِ؟

لـم يكـنْ رفضُـكِ مقنعـاً أبداً يـا أمّي... لم يكنْ عـادلاً... لم يكنْ مُنصفاً... كان قرارَ رفضٍ لا اسـتئناف فيهِ، كان قراراً عنصريّاً قاتـلاً... ألأنّهـا بكماءُ... خرسـاءُ؟ لا تسـتطيعُ النطقَ؟ لا تسـتطيعُ إجابةَ الصوتِ؟.

ألـم تعلمـي يـا أمّـي أنّي رضيـتُ بصمتِها الجميـلِ، ورضيتُ بثغرهـا الباسـمِ السـاكتِ، وفضَّلتُـه علـى ألـفِ شـفاهٍ كاذبـةٍ؟، ألم تعلمي يا أمّي أنّي كنتُ أسـمعُ قهقهاتِ الفرحِ في مسـتقبلي منبعثةً من صوتِ حلقِ أُذنيها؟

ألم تعلمي يا أمّي وللمرَّةِ الأولى أحسستُ بأنَّكِ لستِ أمّي.!

كنتُ أسخرُ دائماً على لقطاتِ العقوقِ في مسلسلاتنا العربيةِ،

تلك اللقطاتِ التي تُظهرُ تحكُّم المرأةِ ببعلِها، وتحولهُ لناكرٍ للمعروف يقسى على أمِّهِ...، كنتُ أقولُ أنَّها دراما مباغةٌ بها، أو حبٌّ جنونيٌّ لا يمكنُ أن أراهُ على أرضِ الواقعِ أبداً... وها أنا أقسى على أمِّي الآن من أجلكِ... من أجلِ حبٍّ وضعني على هاويةِ الجحيمِ دون أن تعلمي أنتِ يا حبيبتي بثورتي على حُكمِ أمِّي.

لم تكوني تعلمي أبداً أنّني أردتُ اختطافَكِ من منزلكِ برضى أبيكِ، لم تكوني تعلمي أنّي أناقشُ تفاصيلَ فُستانِكِ الأبيض بيني وبين أمِّي... كنتُ أريدُ أن أفاجئَكِ... كنتُ أريدُ أن أردَّ دينَ هديتكِ بهديةٍ تلقيكِ في أحضاني.

كنتُ أريدُ وأريدُ وأريد... ويفعل اللهُ دائماً ما يريدُ.

لم أخبرْها أبداً بما حدثَ معي، بما قالتهُ أمِّي، صرتُ أمثِّلُ السعادةَ عليها، أكذبُ وأخبرُها بأنَّ يومَ اللقاءِ الحقيقي سيأتي قريباً، وسنفرحُ معاً وسنبكي من الفرحةِ معاً.

أصبحتُ تعيساً حين أقرأُ رسائلَها، حين أقرأ كلمةَ «أحبُّك» فيها، وحين أقرأُ عهوداً عقدتُها في مرحلةِ هيامٍ، وأصبحتُ الآن أعلمُ أنَّها قد لا تتحققُ أبداً.

قلَّت رسائلي لها، قلَّت كلماتُ الحبِّ التي أكتبُها لها... بدأتُ أهملُها كثيراً، أهملُ حاجتها لي ونداءاتها.

كُنتُ أختمُ محادثتنا بقولِ: «لا حرمني اللهُ منك يا حُلوتي»، وها أنا الآن أحرمُ نفسي منكِ، أحرمُ قلبكِ من قربي دونَ أن تعلمي لمَ هذا الحرمان ولمَ هذا البعد القاسي.

(11)

ديـالا، طفلـةٌ وُلدتِ فـي بيتٍ ريفيٍّ في مدينة بيروت اللبنانية. كانت عائلةُ ديالا تعيشُ في حالةِ فقرٍ تقتلُ طموحَ أبنائها من إكمالِ دراسـتهم، فلـم يكونـوا قادريـن حتى على شـراءِ الكتبِ والأدواتِ الدراسيّةِ التي يحتاجُها الصغارُ.

حالةُ الفقرِ تلك جعلت ديالا تُؤمِنُ بأن لا مسـتحيلَ في هذهِ الحياةِ، فقد كان طموحُها كبيراً، ترى أنَّها نمتْ في الرحمِ الخاطئِ، فمَـن مثلُهـا –فـي اعتقادهـا– لا تصلحُ إلا أن تكـون أميرةً محاطةً بالخدمِ.

كانت دائماً تلعنُ حظَّها البائسَ الذي جعلها ابنةً لمزارعٍ فقيرٍ، وكانت تهدِّدُ عائلتَها دائماً بأنَّها ستهربُ منهم يوماً ما، ولكن أبويها لـم يصدقـا قولهـا، كانا يعتقدان أنَّهُ كلامُ مراهقةٍ متضجِّرةٍ من حالةِ أهلِها الاقتصاديَّةِ، إلى أن صحَوا في أحدِ الأيام المؤلمةِ، ووجدوا سريرها محشوّاً بالقطنِ حاملًا رسالةً مفادُها: «لا تبحثوا عنّي... أنا أحبُكم ولكن لا أحبُّ حياتي معكم... وداعاً».

بحـثَ عنهـا أبوها في كلِّ شـوارعِ بيـروت، لم يتركْ مكانًا إلا وقصـدَهُ مـن أجـل أن يجـدَ أثراً لهـا. كانَ يضعُ كلَّ أسـبوعٍ إعلانًا فـي صفحـةِ المفقوديـن بإحـدى الصحفِ المعروفة، وكان يتوسَّـلُ

لصديقاتها كلَّ يومٍ أن يخبرنَهُ إن كنَّ يعلمنَّ بمكانها، لكن ولا واحدة منهنَّ يعلمنَّ بأرضها. سريرُها الخشبي الذي يئنُّ من أيِّ حملٍ يستلقي فوقهُ أصبح حزيناً يشتاقُ لمعانقتها مجدداً، وطاولتُها الخضراءُ في مدرستها ترفضُ أيَّ فتاةٍ تحاولُ أن تملكَها، كلُّ شيءٍ افتقدَ وجودَها وصراخَها وتذمُّرَها وغنجَها المترف.

ديالا ذاتُ الثامنة عشر عاماً اختفت ولا أحد يعلمُ أين هي.!

* * *

- صباحُ الخيرِ يا جدَّتي...

- بأنفاسٍ متقطعةٍ وعيونٍ حزينةٍ أجابت: صباح الخير هتان...

- ما بكِ يا أمِّي؟ أرى ماءً محبوساً في عينيك!

نطقتُ والدمعةُ تبللُ خدَّها...

- شاخَ القلبُ يا بُنيِّ وقربُ موعدُ الرحيل... أسمع لدقاتهِ.. أسمع لنداءِ الموتِ في داخلي...

بروحٍ خائفةٍ وقلبٍ منسكرٍ أجبتُها:

- ترحلُ روحي إن رحلتِ يا أمِّي الكبيرة، ويموتُ قلبي إن دمعتْ عينيكِ... هاكِ قلبي وهاكِ عمري وابقي أنتِ شمعةً مضيئةً في عتمةِ الحزنِ.

بغضبٍ وحنانٍ ردَّت:يالله، الموتُ أحبُّ إليَّ مما يقولُ هذا الغلام..

وبصدقٍ دعوتُ: يالله، الموتُ أرحمُ عليَّ مما تقولُ هذهِ الوردةُ..

– وردةٌ؟! أيُّ وردةٍ أكون يا هتان..

– وردةٌ عبيرُها رائحةُ عودٍ عربيٌّ أصيلٍ كأصالةِ وفائها..

فابتسمت كما تبتسمُ العذراءُ، وكما تبتسمُ دائماً لمغازلاتِ جدِّي الذي كان يراها وردةً لا تذبلُ أبداً..

– هيا يا جدَّتي أخبريني: ما بكِ؟

– لا أعلمُ يا هتان، ولكن أشعرُ أنَّ قلبي لم يعد يحتملُ نبضاتٍ أخرى..

– لا تقولي هكذا يا جدَّتي، وساوِسُ شيطانٍ وسيهربُ منكِ حين تذكرين الله..

– لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله..

– أطالَ اللهُ بعمركِ يا نور حياتنا... أعرفُ أنَّكِ لا تحبِّين المستشفياتِ، ولكن كوني مستعدَّةً حين أعودُ من عملي لنذهبَ للمشفى ونطمأنَّ أكثر على صحتكِ..

– لا يا هتان، لا أريدُ أيَّ طبيبٍ أو فحصٍ... أنا بخيرٍ..

– لا تحاولي فلن ينفعَكِ أيُّ شيءٍ مع عنادي... كوني مستعدَّةً..

ودَّعتُها وهي ترددُ بأنَّها لا تريدُ أنا تذهب للمشفى، وخرجتُ لعملي وأنا قلقٌ عليها..

* * *

ديالا الهاربةُ من الفقرِ التقت برجلٍ وسيمٍ ذو مالٍ عظيمٍ أُعجِب بجمالها وبنحفِ خصرها وبتلك الشفتينِ المتكنزتينِ، فعرض عليها فرصةَ النجاةِ من إعصارِ الفقرِ، عرض عليها زواجاً

ذا مصلحةٍ متبادلةٍ بين الطرفين. فهو يريدُ تذوُّقَ هذا الجمالَ الذي تمتلكهُ، وهي تريدُ ذلك المالَ المتراكمَ في خزانتهِ. التقيا قبل أسبوعينِ من ليلةِ الهروبِ، وكانت صديقتُها سلمى هي حبلُ التواصلِ بينهُما.

كانت سلمى التي تكبرُ ديالا بأربعة أعوامٍ تعملُ في مجالٍ دنيءٍ، تبيعُ فيهِ أجسادَ الفتياتِ الفاتناتِ لأشباهِ الرجال!، كانت وظيفةُ سلمى هي أن تبحثَ عن الفتياتِ الفقيراتِ الجميلاتِ وتغريهنَّ بالمالِ ليهربنَ من منازلهنَّ ويتزوجنَ - وأحياناً لا يتزوجنَ - برجالٍ أغنياء، وتتقاضى هي حزمةً من النقودِ نظير أعمالها القذرةِ.

في بدايةِ الأمرِ لم تقتنعْ ديالا بالفكرةِ، كانت خائفةً من الهروبِ مع رجلٍ لا يحسنُ معاملتها، يؤذيها ويأكلُ جسدَها ثم يرميها عظماً لكلابِ الطريقِ. فكَّرتْ كثيراً وبكت كثيراً من شبحِ الخوفِ الذي يلاحقُها. أتهربُ من منزلِ أبيها وترتمي في أحضانِ رجلٍ غريبٍ لا تعرفُ عنهُ شيئاً سوى أنَّهُ غنيٌّ؟، ولكن لمَ لا تهربُ؟! لمَ لا تنتهزُ هذه الفرصةَ التي سترفعُها من وطأةِ الفقرِ إلى سماءِ الغنى؟!، أليس هذا ما حلمتْ بهِ؟، سفرٌ ومالٌ وحقائبُ غاليةُ الأثمانِ، وطاولةٌ في درجِها الأول قلائدٌ وياقوتٌ، وعلى سطحها مستحضراتُ تجميلٍ بألونٍ عديدةٍ وخزانةٌ مليئةٌ بالفساتينِ القصيرةِ المستوردةِ من فرنسا وأحذيةٌ صُنعت في إيطاليا!!. أترفضُ كلَّ هذا وترضى أن تبقى في منزلِ أبيها تغسلُ ملابسهُ التي تغيَّر لونُها من كثرةِ الطينِ التي تحملهُ بين خيوطها، وتساعدُ أمَّها في الطبخ للغيرِ من أجلِ أن يحصلوا

على مالٍ يسدُّ حاجتَهم؟!.

سلمى تتصلُ عليها كلَّ ليلةٍ وتخبرها بأن مَن ينتظرُها قد لا يصبرُ أكثر، عليها أن تقررَ بسرعةٍ، فإمَّا أن تهربَ وإمَّا أن تبقى بينَ جدرانِ منزلها المتهالك.

وافقت ديالا... وافقت على أن تتركَ أهلها حزينين خلفها، وأن تكتفي بسعادتها فقط، وافقت بعد أولِ لقاءٍ بينها وبين ذلكَ الرجلِ الذي يكبرهُا بثلاثين سنةٍ على الأقل.!

* * *

انتهت ساعاتُ عملي وتوجَّهتُ عائداً للمنزل؛ لكي أُقِلَّ جدتي وأذهبَ بها للمشفى،

أخذتُ هاتفي واتصلتُ على جدَّتي لتكونَ مستعدةً للخروجِ، أجابتني سريعاً وقالت: إنَّها ستذهبُ من أجلي فقط، وأخبرتني أيضاً أنَّ طفلتَها البارّةَ بها سترافقُنا أيضاً... حنين طفلتُها التي لا تتركُها لوحدها أبداً.!

لقاءٌ آخر سيجمعُني بها، لقاءٌ آخرُ غيرُ متوقَّعٍ، ولكنِّي أجزمُ بأنَّها هي مَن أصرَّت على القدومِ حينما علمت أنَّ جدَّتي ستذهبُ لوحدها معي..

أيُّ لقاءٍ هذا سيكون؟ لقاءُ حُبٍّ أم لقاءُ عتبٍ على إهمالِ العاشقِ لمحبوبتهِ... هل ابتسمُ لها حين أراها؟، ولكن كيف أبتسمُ في وجهِ أوجعتُهُ بغيابي عنه، كيف أبتسمُ أمام قلبِ خذلتُهُ بابتعادي عنه؟... لقاءٌ لم أتمنَّاه، لقاءُ دقائقَ من وجعٍ وخذلان...

كم كانت تقتلُني نظراتُها الحزينة نحوي، تنظرُ لانعكاسِ

صـورةِ وجهـي علـى المرآةِ، وحينما تقعُ عيني بعينها تلتفتُ وكأنَّها لا تهتـمُّ أبـداً لرؤيتـي، تلك النظراتُ الباردةُ بين حبيبين أقسـى من أيِّ عتابٍ، وهي وسيلةُ تعذيبٍ مؤلمةٌ.

لماذا تغيَّرنا هكذا، فجأةً تغيرنا أو تغيرتُ أنا فقط؟، لماذا لم أعد ذلك الرجلُ الذي يحترقُ شـوقاً لرؤيتها؟، لماذا لم أعد ذلك الرجـلُ الـذي أقسـمَ أن لا يبكي عيناهـا أبداً؟. أهو الخوف من أن لا أنالهـا يومـاً مـا يجعلني أؤلمُ قلبها هكـذا؟، فيجعلُني أقتلهُ ببطءٍ بسكينِ الإهمال!.

وصلنـا للمشـفى، وكنَّـا أربعةٌ، أنـا وجدَّتي وحنيـن والعتاب، توجَّهـتُ لركنِ الاسـتقبال وطلبـتُ موعداً عاجلاً مع طبيبةٍ تفحصُ جدَّتي، أخبرونا أن ننتظرَ قليلاً، فتوجَّهتُ لصالةِ الانتظارِ بينما جلستْ جدَّتي وحنين في قسمِ النساءِ.

انتظرنا حتى صاحت إحدى الممرضاتُ باسـمِ جدتي فدخلنا لغرفةِ الطبيبة، وهناك التقينا بطبيبةٍ عربيةٍ شـكلُها يوحي بأنَّها شـابةٌ صغيرةٌ، بدأت تتحدَّثُ مع جدتي وتسـألُها عن وجعِها وماذا تشـعرُ بـهِ، وفـي الوقـتِ ذاتـهِ أنـا مَن كان يتألـمُ قلبي لرؤيـةِ حنين أمامي دون أن أستطيعَ الاعتذارَ لها على غيابي، على دقائق الانتظارِ التي سهرتْها راجيةً وصالي.

كانـت نظراتـي نحوهـا وصدُّها عنِّي مثيرين للشـكِّ إلى الحدِّ الذي جعلَ تلكَ الطبيبةَ العربيةَ تمازحُنا وتسألُ: «هل أنتما مترتبطانِ ببعضكمـا البعـض؟»، تجمَّـدَ كُلٌّ منَّـا في مكانـهِ وزادَ نبضُ قلوبنا، لقد وضعتنا تلك الطبيبةُ بسؤالها في موقفٍ لا نُحسدُ عليهِ إلى أن

أنقذتنا جدَّتي بضحكتها وهي تقولُ: «لا، هؤلاء أحفادي، هذا هتان وهذهِ حنين وهما أعزبان». ابتسمت الطبيبةُ ونظرت نحوي ونحو حنين وكأنَّها تعلمُ أنَّ هناك شيئاً بيننا نخبِّؤهُ عن الجميعِ.

ذهبت جدَّتي والطبيبةُ خلفَ ذلك الستارِ الأزرقِ؛ ليجروا بعض الفحوصاتِ وتبعتهم حنينُ بعدما لم تستطعْ أن تجلسَ أمامي دونَ أن تفعلَ شيئاً.

في تلك اللحظةِ، تمنَّيتُ كثيراً لو كان لكِ صوتٌ يُسمعُ، تمنَّيتُ أن أسمعَ عتاباً منكِ فمهما كانت كلماتُهُ قاسيةً أو موجعةً فإنَّهُ أهونُ من هذا الصمتِ الباردِ. يا تُرى لو كنتِ تستطيعين النطقَ فكيف ستكونُ رنَّةُ صوتكِ؟، ياه لو كنتِ تنطقين فقط لكانَ صوتُكِ أجملَ من غناءِ فيروزَ في أولِ الصباحِ، لكان صوتُكِ أشبهَ بتغريدِ عصفورةٍ ترقصُ على أغصانِ الشجرِ، آهٍ لو كنتِ تتحدَّثين فقط لما وصلنا لهذا الحالِ المؤلمِ، لما قالت جدَّتي عنَّا: «أعزبان»!.

انتهت فحوصاتُ جدَّتي وأخبرتنا الطبيبةُ أنَّها بخيرٍ ولكنَّها تحتاجُ للراحةِ وعدمِ بذلِ أيِّ مجهودٍ قد يرهقُ قلبَها. خرجنا سعداءُ بهذه النتيجةِ، وقبل أن نخرج من المشفى جاءَ صوتُ الطبيبةِ مُنادياً:

- أستاذ هتان... أستاذ هتان.

التفتُّ نحوها وأجبتُ ندائها: نعم، تفضَّلي..

- نسيتُ أن أعطيكم وصفةً لبعض الأدويةِ التي تحتاجُها جدَّتُكم... لو سمحتَ الحقني لأكتبَها لك.

لحقتُ بالطبيبةِ بينما جلست جدَّتي وحنين على المقاعدِ القريبةِ من بابِ الخروجِ لتنتظرا عودتي.

وفـي غرفـةِ الطبيبـةِ كانـت الطبيبةُ تكتبُ تلـك الوصفةَ، وهي تبتسـمُ وكأنَّها خجلانةٌ من أمرٍ ما، أخذتْ ما يقاربُ العشـرةَ دقائق وهـي تكتـب!، وتبـرّرُ تأخيرَهـا بأنَّهـا لا تريـدُ أن تكتـبَ علاجاً ذا مفعـولٍ قـويٍّ، وأنَّها تحاولُ استـذكارَ اسـمِ أحـدِ الأدويةِ، وقبلَ أن تعطيني ورقةَ العلاجِ قالتْ وهي تُقلِّبُ عينيها شمالًا ويميناً:

- يا أخ هتان، أنا قلقةٌ جداً على وضعِ جدَّتك..

بصـوتِ متفاجـئٍ قلـت: ألم تقولي أنَّها بخيـرٍ وتحتاجُ للراحةِ فقط؟!

تلعثمتْ قليلًا ثم أجابتْ: نعم، نعم قلتُ هذا، ولكنَّي في نفسِ الوقـتِ لـم أشـأ أن أتحـدَّثَ بصراحةٍ أمامَ جدَّتـكَ فتنزعج هي من حديثي..

- إذاً ماذا؟ أخبريني ما بها..

- هي بخيرٍ لا تقلق، ولكن قلبُها أصبحَ ضعيفاً جداً وتحتاجُ الآن لعنايةٍ كبيرةٍ، لا تَدعوها تبذلُ أيَّ مجهودٍ، حاولوا أن لا تصعد أيَّ سلالمٍ وأن تبقوا دائماً بقربها لخدمتِها..

- سنفعلُ ذلكَ إن شاءَ اللهُ..

لقـد كان كلامُ الطبيبـةِ متناقضاً بعضَ الشـيءِ، فمرَّةً تقول: أنَّ جدَّتـي بخيـرٍ، ومـرَّةً تقـول: وضعُها غيرُ مطمئنٍ، ثـم تعودُ وتقولُ: أنَّها بخيرٍ وتحتاجُ للراحةِ فقط، وكأنَّها بتناقضِها هذا تريدُ أن تقولَ شـيئاً، ولكنَّها تخجلُ من البوحِ به، وصدقَ حدسـي، بعدما انتهت من كتابةِ الوصفةِ سألتني وخدَّاها مُحمرَّانِ:

- هل تستطيعُ أن تطمئني غداً بحالِ جدَّتك؟

أجبتُ سؤالها بسؤالٍ آخر: هل تقصدين أنكِ تريدين رؤيتها غداً أيضاً؟

- لا... لا... لحظةً من فضلِكَ..

أخرجت ورقةً صغيرةً من درجها، وكتبت عليها بعض الأرقامِ ومدَّتها بخجلٍ لي

- تفضَّل هذا رقمي... فقط اتصل بي غداً وطمئنِّي على حالة جدَّتك ...

باستغرابٍ أخذت الورقة منها ثم ودَّعتُها

(12)

منذُ اليومِ الأولِ الذي عرفتُكِ فيه وأنا لم أتجرَّأْ.يوماً على أن أقتربَ من امرأةٍ أخرى. ومنذُ اليومِ الأولِ الذي أحببتني فيه وأنا لم أتجرَّأْ على أن أُحبَّ امرأةً أخرى.ولكن كلُّ شيءٍ تغيَّر الآن...

لا أنا هو أنا، ولا أنتِ هي أنتِ... ولا هذهِ الأحلامُ التي بيننا صارت تكبرُ وتكثرُ، ولا هذا القلبُ صار يهتمُّ.

نعم أخافُ عليكِ، وأحبُّكِ، وأريدُكِ... ولكن ماذا عساي أن أفعلَ أمامَ قدريْ؟، ماذا عساي أن أفعلَ لأنانيتكِ وأنا رجلٌ شرقيٌّ لا يتزوَّجُ مَن يحبُّها إلا برضى أمِّهِ وتبريكاتِ عشيرتهِ؟.

حاولتُ مراراً وتكراراً أن أكسرَ حاجزَ الرفضِ الذي وضعتْهُ أمِّي بيني وبينكِ، وفي كلِّ محاولةٍ تخيِّرني أمِّي بينَ جنَّةِ عينيكِ وتلكَ الجنَّةِ الموضوعةِ بأمرِ اللهِ تحتَ قدميها.

تقتلُني رسائلُ شوقكِ في كلِّ ليلةٍ، أشعرُ أنِّي مجرمٌ أمامها، كيف استطعتُ أن أُبكي فتاةً لم تعرفِ البكاءَ قبلي؟، وكيف يقوى قلبي على الصدِّ أمامَ أجملِ أمنياتهِ؟.

تكتبين لي أنَّكِ وحيدةٌ دوني، وأنَّكِ لا تعرفين سبباً لغيابي الذي يأكلُ قلبكِ وصبركِ. تحاولين جذبي من جديدٍ بكلمةِ «أحبُّك» أو بـ«اشتقتُ إليك»، أو حتى بصورةٍ لكِ عساها أن تذكِّرني كيف

كنتُ أجنُّ حينما أراكِ. وتتساءلين ماذا حدثَ لي؟... ما الذي غيَّرني وحوَّلني لمجرمٍ في مدينة الحبِّ، وأنا مَن كان العادلُ بالحبِّ بينَ عينيكِ وخديكِ، أتراهُ ملَّ صمتي؟ أم أنَّها كما توقعتها مسبقاً نزوةٌ وستزولُ بعد أن يتذوَّقني؟

تتساءلين وأصبحُ أنا الأبكمُ الذي لا يستطيعُ إجابتكِ!..

أتجاهلُ رسائلكِ وصوركِ، وتنتابُني حالةُ أرقٍ تجعلُني أشعرُ أنَّني ظالمٌ لن يهنأَ لهُ النومُ أبداً.يا عينيها نامي، ودعيني أنا للسهرِ وللبكاءِ وللأحزانِ... دعيني أموتُ شوقاً ولكن لا تدمعي فأموتُ قهراً.

كلما تذكرتُكِ شعرتُ بقرصةٍ في قلبي، ذكراكِ أصبحَ داءً يتنشرُ بي جالباً لي أعراضَ مرضِ الحبِّ القاتلِ، حنينٌ وشوقٌ وبكاءٌ يحتلُّون فضاءاتِ عينيَّ.

أتساءلُ دائماً، ماذا لو هربتُ بكِ؟! ماذا كان سيحدثُ لو اتفقنا على الهروبِ معاً، نهربُ ونحنُ ممسكانِ بأيدي بعضنا البعضِ؟، لا يهمُّ إلى أين سنهربُ، الأهمُّ هو أنَّنا نبقى معاً. لا شيءَ يفرِّقُنا ولا شيءَ يبعدُنا عن بعضنا، تنامين على صدري كلَّ ليلةٍ، وأقبِّلُ خدَّيكِ كلَّ صباحٍ. نرحلُ لمنفى يحتضنُ هذا الحبَّ ويجمعُ شملَ شفتينا. ماذا كان سيضرُّ هذا العالمَ بأسرهِ لو عانقتُكِ الآن؟ ماذا سيحدثُ لهذا الكونِ لو قبَّلتُكِ الآن؟

لماذا لم اختطفْكِ؟! ولمَ رضيتُ أن أعيدَكِ لمنزلِكِ حينما كُنتُ منفرداً بكِ في شوراعِ المدينةِ، ولمَ رضيتُ مرّةً أخرى أن أدعَكِ ترحلين بعد أولِ قبلةٍ شهدتْها جدرانُ غرفةِ الغسيلِ؟!

لو أنَّنا هربنا معاً، لـمَا ظللتُ هنا وحدي أستحضرُكِ من رمادِ ذكراي، وأكتبُكِ كروايةٍ أو حكايةٍ للعشاقِ.

ليتَكِ كُنتِ ديالا! تهربين معي بلا مبالاةٍ بما ستخلِّفينهُ وراءَكِ من حزنٍ يستوطنُ صدورَ أهلك...، ليتَكِ كنتِ مثلَها أنانيةٌ لا ترضين بأقلَّ من سعادتكِ.

ولكن ما شأننا نحن وما شأنُ ديالا بنا؟!

ديالا الفتاةُ الهاربةُ من وطنِها لم أكنْ أعرفُها من قبل أن تشتكي جدَّتي من نبضِ قلبها، ومن قبلِ أن أذهبَ معها لزيارةِ تلك الطبيبةِ التي كتبتْ رقمَ هاتفها لي جاعلةً عقلي يحتارُ بنواياها، تردّدتُ كثيراً بالاتصالِ بها، وأخبرتُ صديقي خالد عنها فقال لي:

- إن لم تتحدَّثْ معها، فسأفعلُ أنا!!

كان خالدٌ يجزمُ أنَّ تلك الطبيبةَ لم تكتبْ لي رقمَها لأنَّها تريدُ الاطمئنان على صحَّةِ جدَّتي، كان يقولُ: أنَّها تسعى لشيءٍ آخرَ لا يتعلَّقُ بجدَّتي أبداً.

لم آخذْ كلامَهُ على محملِ الجدِّ، فهو دائماً يرى النساءَ بصورةٍ مشوَّهةٍ.

وبعد إلحاحِ خالدٍ أخذتُ هاتفي واتصلتُ بها، وهو جالسٌ بجانبي يسترقُ السمعَ على حديثنا..

بصوتٍ خافتٍ: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته..

وبعد بضعةِ ثواني... أجابت: وعليكم السلام... مَن معي؟

- أهلاً بكِ يا دكتورة... أنا هتان الذي زاركِ قبل يومين

مع جدتـي...

- أهلاً هتان تذكَّرتُكَ... كيف هو حالُكَ؟

- بخيرٍ ولله الحمد..

- وكيف هو حالُ جدَّتك؟ أهي بخيرٍ؟

- نعم، بخيرٍ ولله الحمد..

- الحمد لله..

- فقط أحببتُ أن أطمئنَكِ عليها كما طلبتِ منِّي..

- ممتنَّةٌ لكَ يا هتان...

- وبطريقةٍ أغرب من طريقة طلبها لمحادثتي... سألتني..

- هل تمانعُ إن اتصلتُ بكَ بعد ساعتين تقريباً؟

- لا أمانعُ يا دكتورة..

- إذاً نتحدَّث لاحقاً... مع السلامةِ.

- في أمانِ الله..

انتهـتِ المكالمـةُ والتفتتُ نحو صديقـي خالد وصارَ يضحكُ ويسخرُ منِّي ويؤكِّدُ لي ظنَّهُ حينما قالَ: أنَّها تسعى لأمرٍ آخر..

ومـع ثانـي اتصـالٍ، كان الأمرُ واضحاً، وليس بحاجةٍ لتفسـيرٍ آخر، غيرَ أن تلك الطبيبةَ تحاول أن تجدَ صديقاً تتحدَّثُ معه؛ رُبَّما لأنَّها جاءت من بلادٍ أخرى، تصادقُ فيها المرأةُ الرجلَ ويخرجانِ معاً في نزهةٍ، ويتناولانِ العشاءَ معاً دون أن يخافا من أعينِ الناسِ التي تشـككُ بصلتِهما ببعضهما، ولم يخطرْ ببالها أنَّها تعيشُ الآن في بيئةٍ محافظةٍ، قد يعتبرون أيَّ تواصلٍ بين الأنثى والرجلِ جريمةً يعاقبُ عليها الشرعُ والقانونُ.

حديثُها ونبرةُ صوتها وتلك البحَّةُ الجميلةُ فيهِ جعلتني أصغي لهـا كطفـلٍ مسـتمتعاً بصـوتِ هديـلِ الحمامِ، تلقي بكلمـاتٍ حلوةِ الرنيـنِ فـي أذنـي، كلمـاتٍ مترفةِ الغنجِ اكتسـبتها مـن لهجةِ وطنِها الأخضر.

كانت كقطةٍ ألفيةٍ خائفةٍ تبحثُ عمَّن يداعبُ فروَها حتى تنامَ مطمئنةً بأن هناك مَن يهتمُّ لها. أخبرتني عن عملِها كطبيبةٍ متخصِّصةٍ فـي أمـراضِ القلبِ، قالت: «كنتُ أحبُّ عملي جداً، أحبُّ اللحظةَ التـي أسـمعُ فيهـا نبضـاتِ قلـوبِ المرضـى، فأطمئنُهـم أحياناً بأن قلوبهـم لازالـتْ قويـةً وقادرةً على تحمُّلِ أوجاعِ الحياةِ، وأوجعُهم أحيانـاً أخـرى حينمـا أقولُ لهـم بأنَّ قلوبَهم تعبةٌ من هذهِ الحياةِ...، كنتُ أحبُّ هذا العملَ حينما لم أكنْ بحاجةٍ لـمَن يتحسَّـسُ قلبي ويخبرني عن حالِهِ، ولكن إلى متى وأنا أسمعُ رنينَ قلوبِ الغيرِ ولا أحدَ هنا يستطيعُ سماعَ هذا الرنينِ الحزينِ الذي أشعرُ بهِ في قلبي.

أرهقتنـي هـذهِ الحياةُ حتى ذبـلَ وجهي، أقفُ أمامَ مرآتي ولا أرى نفسـي، شـعري بدأَ يتسـاقطُ كأوراقِ شـجرةٍ تقفُ وحيدةً أمامَ رياحِ الخريفِ، وحيدةٌ أنا، أشعرُ أنِّي «أنا» أصبحتُ بلا «أنا»..

أردتُ أن أخففَ عنها قليلًا... فقلتُ لها: يا دكتورة... إنــ...

قاطعتي قائلةً: لا تناديني بقلبي... ألا تريدُ أن تكونَ صديقي؟!

بخجلٍ أجبتُها: نعم، لكنْ أصدقاء...

– إذاً ناديني باسمي... ناديني بـــ «ديالا» فقط.

– حسنًا يا... ديالا، إنَّ الحياةَ ظالمةٌ أحياناً، لا تعطينا بمقدارِ ما نعطيها... لستِ وحدَكِ مَن يشعرُ بالتيهِ، ولستِ وحدَكِ في دائرةِ

اللاهتمام... ولكنَّها الحياةُ، حياةٌ واحدةٌ، فإمَّا أن نتجاهلَ قسوتها لنسعدَ، وإما أن نلهثَ وراءها كالكلابِ حتى نفقدَنا

– أتشعرُ بالوحدةِ يا هتان؟، أتشعرُ بها وأنت بينَ أهلِكَ وصحبكَ؟..

– الوحدةُ ليست بغيابِ البشرِ من حولنا، الوحدةُ أن تغيبَ أنفسُنا عنَّا..

– ولماذا تشعرُ بغيابكَ عن نفسِكَ؟

– نفسي تمرَّدتْ عليَّ وانشقَّت عنِّي، وراحت تركضُ وراءَ مَن منعَني القدرُ من الحصولِ عليها.

– تُحبُّ؟

– رُبَّما..

– ما يمنعُك عنها؟

– الأمرُ معقَّدٌ..

– لا يوجدُ أمرٌ معقَّدٌ...

– ولكن يوجدُ أمرٌ لا يصلحُ للبوحِ...

– أتفهَّمُ صمتكَ يا هتان، وأفهمُ حشرجةَ حنجرتِكَ حين تريدُ البوحَ بهذا الشيءِ، ومَن منَّا لا يملكُ أسراراً؟

– وأيُّ سرٍّ تخفينَهُ أنتِ يا ديالا؟

– سرِّي أقبحُ من أن يستمعَ إليهِ أيُّ صديقٍ، دعهُ في قلبي ولنفسي فقط..

– نحنُ أنانيّون حتى في اطلاقِ أوجاعِنا..

فهقهت قائلةً: رُبَّما..

وقبلَ أن تتعانقَ عقاربُ الساعةِ عندَ الثانيةِ عشر صباحاً ودَّعتني بلطفٍ، ووعدتني أن تبوحَ بسرِّها لي عندما تقدرُ على تحمّلِ ألمِ خروجهِ من صدرِها، وكأنَّها بوعدِها ذلك تخبرُني أنَّ هناكَ أيامٌ قادمةٌ ستجمعُ صوتي بصوتها.

(13)

When I told you I do not love you, it was the blackest lie in my life!

* * *

(لديك رسالةُ بريدٍ إلكترونيٌّ جديدةٌ)

«عزيزي هتان... أكرهُكَ!

نعم أكرهُكَ بقدرِ ما أحببتُكَ، أكرهُ غيابَك هذا... بماذا أخطأتُ لتعاقبَني هكذا، ولتعذِّبَ قلبي الذي يتلهَّفُ لوصلِكَ، أشعرُ بالذنبِ لأنَّني أحببتُك، ولأنَّني سمحتُ لرجلٍ أن يؤلمَ قلبي، أشعرُ بالأسى على نفسي، نفسي التي تنتظرُكَ صباح مساء، وتنتظرُ وجهَكَ ليُقبلَ عليها كشمسٍ تتوقَّدُ..

عيَّشتَني في حيرةٍ مؤلمةٍ، جعلتَني أشكو حزني لغيركَ، وجعلتَ غيرَكَ يربتُ على كفي...، أيُّها العاشقُ الذي جُنَّ بهِ قلبي، ماذا حدثَ لكَ؟، ما الذي غيَّركَ وأبعدَكَ كغيمةٍ أراها ولا أستطيعُ لمسَها؟، ألا تذكرُ وعدَك؟ بأنَّك لن تدعني يوماً للحزنِ؟، ألا تذكرُ كم من مرَّةٍ أقسمتَ أن تسعدَني؟... أكنتَ تلهو بقلبي حين وعدتَني؟، أم كنت تكذبُ لتلهو بقلبي؟

لا يهمُّ ماذا كنتَ تفعلُ، ولكن انظر لما تفعلُه الآن بيَّ!.

أريدُكَ بمقدارِ هذا الألمِ الذي أشعرُ بهِ عندما أقولُ أريدكَ ولا تأتي، أشتهيكَ وأنا الأنثى العذراءُ التي نذرَت نفسَها لكَ ولشفتيكَ..

ما أقواكَ وما أقساك... أتتركُني في خلوةٍ مع طيفِكَ؟، أتدعُني في حيرةٍ مع ظلِّكَ؟

أتبعني البكاءُ حتى صارَ دمعي والماءُ سواءً... أتعبني الظلامُ، الظلامُ الذي صرتُ أختبئُ فيهِ لكي لا تفضحَني هالاتُ السوادِ الداكنةِ حولَ عينيَّ..

أترضى، أترضى بأن تذبلَ عيناي هكذا كوردةٍ وحيدةٍ في حديقتكَ؟... وحدُك مَن يقدرُ على سقياها؛ لتعودَ مزهرةً نديَّةً تسرُّ ناظريك؟... كُنتَ حُلمي الوحيد، وأخشى أن تبقى حُلماً..

كم مرَّةً عليَّ أن أخبرَكِ بأنّي أشتاقُ لكا، كم مرَّةً عليَّ أن أبكي لأطفئ نارَ شوقي بالدمعِ!، كم مرَّةً عليَّ يا حبيبي أن أخبرَكَ أنَّكَ حبيبي لتعودَ لي!

ولأولِ مرَّةٍ أكرهُ صمتي... أكرهُ ثغري الأبكمَ... أكرهُ حنجرتي التي لا تستطيعُ الصراخَ باسمِكَ الآن...

أنا هُنا على مقعدِ الانتظارِ أنتظرُكَ، أنا هُنا في دائرةٍ ذاتِ ظلالٍ مرعبةٍ... لا أدري أين بابَ الخروجِ، ولا أدري أين شعاعُ النورِ... أنا هنا في دائرةِ غيابكَ أموتُ...

دونَكَ أنا في حالةِ انهيارٍ... زلزالُ الشوقِ دمَّرَ كبريائي، جعلهُ حطاماً ورماداً... وجئتُكَ الآن بطلبِ اللجوءِ... إلى مدينتي... إلى قلبكِ.

مفلسةٌ أنا منكَ... وحبِّي لكَ دَينٌ في رقبتِكَ...

أرجوكَ يا حبيبي، عُد لي ورُدَّ لي دَيني..

سأنتظرُك... وسآكلُ أناملي في كلِّ دقيقةٍ لا تقتربُ فيها منِّي، أناملي المطليةُ بالأحمرِ... تلك التي تحبُّ لونَها كثيراً... ستتشوَّهُ إن لم تأتِ، وسأجعلُ المقصَّ بجانبي...، أعدُكَ أن أقصَّ شعري الطويلَ الذي داعبتَهُ بيديكَ... وألقي بهِ في سلَّةِ القمامةِ؛ لكي لا أذكرَكَ في كلِّ مرَّةٍ أهذِّبُهُ ولا أجدُ يداكَ لتبعثرهُ من جديدٍ..

وإن لم أفعلْ كلَّ هذا، سيكونُ من الظلمِ أن أتأنَّقَ، أن ألبسَ القصيرَ دونَ غزلٍ منكَ، وأن أضعَ الأحمرَ على شفتيَّ ولا أنامُ وهو لازالَ عليها..

أكرهُكَ يا هتان؛ لأنَّك جعلتَني أكتبُ لكَ هذه الرسالةَ، وسأكرهُكَ حين تقرأها ولا تأتي راكضاً محطِّماً لبابِ عزلتي...

لازلتُ أحبُّكَ..

* ملاحظة: هناك أمرٌ هامٌّ قد حدثَ... أرجوكَ لا تجعلني أيأسُ منكَ... لا تجعلني أبحثُ عن طريقٍ لنسيانِكَ..

«حنينك»...

* * *

لستُ أعرفُ ماذا يجبُ أن أكتبَ لكِ...، كلَّما كتبتُ عذراً وجدتُهُ أقبحَ من بياضِ الرسالةِ...، كلَّما أردتُ أن أكتبَ لكِ شوقي، وجدتُهُ أقسى من صمتي، أخافُ من كلِّ كلمةٍ قد أكتبُها هنا وتعلِّقُكِ أكثر بي... تعلِّقُكِ في شباكي كنحلةٍ يائسةٍ في شباكِ عنكبوتٍ لئيمٍ...

وأخـافُ أن لا أكتـبَ لكِ وتشـعرين أنَّ هـذا القلبَ قد ماتَ، وأنَّ هذا العشقَ قد ضاعَ.

ليتَكِ تكرهيني حقّاً، ويالتني لا أسمعُ صدى «أحبُّكَ» في كلِّ مرّةٍ تكتبي فيها «أكرهُكَ»

أحبُّـكِ... أحبُّـكِ يـا قدري، ولا مفرَّ لي من القدرِ... وفراقُكِ مصيبةٌ، فأنا والمصائبُ في علاقةٍ وطيدةٍ..

حرّكتِ برسالتكِ جرحاً غائراً، فكلُّ حرفٍ فيها بعثَ أشواقي من جديدٍ من مرقدِها. تتجمَّدُ أرجلي في كلِّ مرّةٍ أعبرُ أمامَ منزلِكِ، وأظلُّ هناك تحتَ نافذتكِ وحيداً، أسـامرُ قلبي وطيفُكِ الذي ينظرُ لي من خلفِ زجاجها...، فكم رغبتُ بأن أرميها بحجارةٍ توقظُكِ من سُباتكِ، أو أن أتسلَّق لها كلصٍّ سيسرقُ لؤلؤةً من محارتها..

مـا مللتُـكِ يومـاً، ومـا نسـيتُكِ سـاعةً... أنتِ معـي فـي كلِّ الأشـياءِ، أنتِ بقربي أراكِ تسـكبين الشـاي لي، تصفِّفين ملابسـي، ترتِّبين مفارشي، تشاركيني السفر، وتحتلِّين وجهَ البشرِ.

أذكرُكِ في كلِّ ليلةٍ ماطرةٍ... يا تُرى أتحبِّين المطرَ؟ أترقصين علـى إيقـاعِ هطولـهِ، أم تخافيـن مـن رعـودِهِ؟... أذكـرُكِ فـي كلِّ صباحٍ... يا تُرى ألازلتِ نائمةً؟ أكانَ نومُكِ طويلاً أم قاطعهُ صوتُ العصافيرِ وشـعاعُ الشـمسِ؟... أذكرُكِ في كلِّ مسـاءٍ.. يا تُرى مَن سـيحظى برؤيتكِ هذه الليلةَ؟ مَن سـيرى قمرَ السـماءِ جالسـاً على الكنبةِ؟..

أعترفُ لكِ بأنّي أحضنُ طيفَكِ في كلِّ ليلةٍ، أراهُ متمدّداً على فراشي، يبتسمُ ويغمزُ لي، يُحدِّثني عنكِ ويخبرُني كم تشتاقين لي...

وحدُهُ مَن يفهمُني ويعلمُ سرَّ غيابي، يواسيني حينما أبكي، يشتمُني حينما أصدُّ عنه... ويهربُ كلَّما حاولتُ ضمَّهُ ويصرخُ وهو هاربٌ منِّي: «لا تضمَّني.. أنا طيفٌ.. أنا رسولٌ.. فاذهبْ واحضنْ مَن أرسلني لكَ»..

أقفُ على عتبةِ الجنونِ كلَّما ذكرُتكِ... فيتشاجرُ قلبي وعقلي... يتبادلانِ الشتائمَ ويقذفانِ بعضهما البعض... يختلفانِ في الآراءِ...، فالأول يريدُكِ ولا يبالي بأيِّ عقباتٍ قد تفرِّقُنا وتكسرُنا لنصفينِ، والثاني يريدُكِ ويحسبُ ألفَ حسابٍ لرغبتِهِ..

قرأتُ رسالتَكِ..
وبحزنٍ أرسلتُها إلى سلةِ المهملاتِ..

* * *

(14)

فـي بدايـةِ كلِّ قصّـةِ حـبٍّ، يـرى كلُّ عاشـقٍ حبيبتَـه بصــورةٍ كاملـةٍ لا نقـصَ فيها، يرفعُها إلى أقصى درجاتِ الكمالِ والجمالِ، ويوهمهـا أنّهـا خُلقـت مـن نورٍ كما تُخلـقُ الملائكـةُ، وأنَّ الطبيعةَ خُلقت من جمالها.

يهيمُ العاشـقُ بمعشـوقتهِ ويبحرُ بها في شـاطئِ الحبِّ؛ حتى تنامَ مطمئنّـةً أنّـهُ لـم ولـن يـرى غيرهـا أبداً، ولكن سـرعان ما تـزولُ تلكَ الغشاوةُ مع أولِ مشكلةٍ بينهما، أو مع أولِ فتاةٍ أخرى تداعبُ وجدانهُ..

هكذا كنتُ أنا، كأيِّ عاشقٍ آخر، لا شيءَ يميزُني عن غيري، أحبُّ بصدقٍ، ولكن صدقي يكذبُ أحياناً..

وكـم كنـتُ صادقـاً حينما غنَّت ديالا فشـعرتُ بصوتها يصرخُ داخلي، يوقظُني من غفلتي، ويحرِّكُ قلبي من جديدٍ، ويركلُ حنينَ المسـكينةَ إلى آخر الأزقّةِ في قلبي، ويجعلُ لها شـريكةً أخرى في صدري..

«بيني وبينَك يا حلو شو صار في حكايات
ما في كلام يساعها منقولها لفتات
كنا نراسل بالومى ونقول شرح يطول
ولما اجتمعنا لحالنا نسينا شو بدنا نقول»

صوتُها العذبُ أربكَني وعصفَ بشراعِ زورقي، جعلني أتجهُ نحوِ الشمالِ، نحوها بلا إرادةٍ وكأنَّني أفعى ترقصُ على نغمِ مزمارٍ ناسيةً هيبتَها ولا مباليةً بمَن يضحكُ على رقصِها وسذاجتها..

علَّمتني ديالا الكثيرَ والكثيرَ... علَّمتني أنَّني رجلٌ، ولأنَّني رجلٌ فإنَّ الخيانةَ ستلتصقُ بي بشكلٍ أو بآخرَ... علَّمتني أنَّ الرجالَ لعبةٌ في أيادي الفاتناتِ، ومهما كان حبُّهم لمحبوباتهم قوياً وصادقاً فإنَّهم لا يخلون من نقاطِ الضعفِ... علَّمتني أنَّ الحبَّ ضيفٌ لطيفٌ يستقرُّ في أجسادِنا متى ما أكرمناهُ، ويرحلُ متى ما بدأنا نشتكي منه... علَّمتني أنَّ الحبَّ دورةٌ من دوراتِ الطبيعةِ فيه فصولٌ أربعةٌ: فصلُ العشقِ الممطرِ، وفصلُ العناقِ المزهرِ، وفصلُ الحنينِ الباردِ، وفصل شتاءِ النسيانِ القارسِ.

وعلَّمتني معنى أن أنسى حبّاً بحبٍّ آخر، أن أستبدلَ الحبَّ الذي يستعصي عليَّ نيلهُ بجسدٍ آخر يغدقُني بالحنانِ والاهتمامِ، لا يريدُ شيئاً منِّي غيرَ قُبلةٍ في الصباحِ وحضناً في الليلِ، لا يربطُني بهِ أمنياتٌ ووعودٌ أخافُ منها، وأخافُ عليها غدرَ الزمانِ والقدرِ... وعلَّمتني أنَّها مهما كانت قريبةً منِّي إلاَّ أنَّها مرحلةُ نقاهةٍ واستجمامٍ وستنتهي.

ونسيتُ أنَّه في الحبِّ لا توجدُ مرحلةُ نقاهةٍ واستجمامٍ، وإن وُجدَت فهي في الغالب أقربُ لمعنى الخيانة

صارحتني مرّةً بقولها أنَّها امرأةٌ نصفُ متزوّجةٍ، سألتُها وكيف يحدثُ هذا؟، أجابتني: يحدثُ أن يكونَ هناك امرأةٌ نصفُ متزوجةٍ عندما تتزوَّجُ نصفَ زوجٍ، زوجٌ لا يريد منها إلا جسدَها، يريدهُ أن

يكون متأهّباً له متى ما اعتلت شهوتهُ بعد منتصفِ الليلِ، يريدُها أن تسقيهِ من ماءِها ومن خمرِها، ويظنُّ أنّهُ يكافئُها بأموالهِ وهداياه، وينسى أنَّ أجملَ هديةٍ قد تقدِّمُ للمرأةِ هي الاهتمامُ..

نصبتُ ظهري على السريرِ بعدَما كنتُ مستلقياً وسألتُها:

- زواج مسيار؟

- بل هو أشرُّ من المسيارِ، زواجٌ ذو منفعةٍ متبادلةٍ... أنا أداعبُ ثغرَه متى ما جفَّ، وهو يؤمِّنُ لي عيشةً طيبةً.

- ولماذا تقبلين على نفسكِ هذهِ الإهانةَ المغلَّفةَ بشرائطَ حمراء؟

- الذي أمرُّ منهُ يا حبيبي

خجلتُ من اللقبِ الذي أهدتني إياهُ على غفلةٍ منّي، وافتعلتُ الصمتَ ورحتُ أطالبُها بتوضيحِ لقصَّتِها، فما أشعرُ بهِ الآن تجاهها هو نبضٌ لا يحتملُ أن يشاركهُ أحداً بها..

حاولتُ أن أجعلَها تتحدَّثُ، وحاولتْ أن تمتنعَ عن الحديثِ... أخبرتُها أن لا شيءَ في علاقتنا سيتغيَّرُ مهما كانَ ماضيها سيئاً، وأخبرتني أنَّ ماضيها نستْهُ في صندوقٍ أسودَ ولا تعلمُ أين وضعتْ مفتاحَهُ..

ولكنَّها سرعان ما وجدتْ مفتاحَ ذلك الصندوقِ عندما قلتُ لها: «هيّا حبيبتي... أخبريني».

«حبيبي» و«حبيبتي» كلمتان سحريتانِ تفتحُ لكِ أبوابَ أيِّ مغارةٍ تقفلُ أبوابَها أمامَك.. كلمتانِ لهما مفعولٌ يشبهُ عبارةَ: «افتح يا سمسم»!

باحـتْ ديالا بسـرِّها، بتفاصيلِ ليلـةِ هروبها من منزلها وأهلِها وأصدقائها ووطنها، كيف تسللتْ من منزلها، كيف ودعَّت سريرها، كيف كان قلبُها قاسيًا حينما كتبتْ سطراً واحداً في رسالتها، رسالةٌ خاليـةٌ مـن عبـاراتِ الـوداعِ... وكيـف كانـتْ تنظـرُ لجبـالِ وطنِها الخضـراءَ مـن نافـذةِ الطيارةِ، وكم مـن دمعةٍ حرقتْ خدَّها الأبيضَ كالنورِ في تلكَ اللحظةِ الحزينةِ؟!!.

قالـت: إنَّهـا أرادتِ الهـربَ، أرادتْ أن تعيـشَ كما تعيشُ هي الآن، وظنَّت أنَّها لن تندمَ أبداً، وحسـبَت أنَّها سـتكونُ سـعيدةً بهذه الغربـةِ وهـذا المسـافةِ التـي تبعدُها عـن فقرِ أهلِهـا... ولكن هناكَ نبضٌ ما في قلبِها لازالَ يتحرَّكُ كلَّما رأتْ في التلفازِ مشـاهداً من وطنِهـا، وكلَّمـا تذكَّـرتْ وجهَ أمِّها وملابسَ أبيها المتَّسـخةِ وصورةَ أخيها النائمِ في محفظتها...

ورغمَ كلِّ ما حدثَ، إلا أنَّها تعترفُ أنَّها لم تكرهْ هذا الرجلَ الـذي هربـتْ معـهُ، فقـد أغدقَها بأموالهِ ومهَّدَ لهـا طريقَ علمٍ تعلمُ أنَّها لن تجدَهُ في بلدِها مهما صبرتْ وتعبتْ...، قضتْ حياتها في ترفٍ لم تعرفْهُ من قبل، تتنقَّلُ بينَ القارَّاتِ كطيرٍ حرٍّ لا تطوِّقُهُ أيَّ حدودٍ، وتشتِّتُ وحدتَها بالانغماسِ في أوراقِ الطبِّ...

كانـت لا تكتفـي بالنـومِ على وسـائدَ من حريرٍ، بل أرادت أن تصنـعَ فرقـاً واضحـاً فـي حياتها لا يجعلُها تنـدمُ على الهروبِ من عشِّها، لقد قضتْ خمسةَ عشرَ سنةً تتعلَّمُ وتدرسُ حتى ارتدت عباءةَ التخـرُّجِ السـوداء... ارتدتْهـا ولكـن لم يكنْ هناكَ أحـدٌ يصفِّقُ لها حينما اعتلتْ منصَّةَ التتويجِ، ولم يرها أحدٌ عليها أبداً..

لم تكنْ أولى زوجاتِ بعلِها، ولم تكنِ الأخيرةَ... هي كانت الزوجةَ الحرّةَ الطليقةَ، لا حقوقَ زوجيّةٍ بينهُما إلا في أمرين: النفقةُ التي تضمنُ بقاءَها في قربِهِ، والمعاشرةُ التي يجبُ أن تكونَ بموعدٍ مسبقٍ... لا يعيشان مع بعضهما البعضِ، فهو يعيشُ في قصرٍ كبيرٍ مع زوجةٍ أخرى، لا يسخرُ منه الناسُ حينما يرونهُ معها ويكونُ ذو هوًى أمامهم، وهي تعيشُ في شقَّةٍ صغيرةٍ، أجملُ ما فيها غرفةُ نومِها التي اهتمَّ بتزيينها زوجُها أكثر من أيِّ غرفةٍ أخرى في تلك الشقَّةِ..

كانت ديالا تبكي بحرقةٍ وهي تبوحُ بقصَّتِها، شعرتُ وقتَها ببرودٍ يأكلُ أصابعي، وبكلامٍ يموتُ على ثغري قبل أن يخرجَ مواسياً لها، دموعُها جعلت صوتَها دافئاً نقيّاً يتحدَّثُ بصدقٍ، فالبكاءُ والحزنُ لا ينغمسان في الكذبِ..

* * *

(15)

أحببتُ ديالا، وأحببتُ وجودَها..

اقتربنا من بعضنا كثيراً... أصبحنا نتبادلُ الرسـائلَ في الصباحِ، ونثمـلُ بالحكيِ في المسـاء... نتحدَّثُ طويلًا ولا شـيءَ يقاطعُنا... إلا أنَّ الساعةَ الثانيةَ عشرَ في منتصفِ الليلِ كانت تؤلمُ قلبي أحياناً، ففيها تختفي ديالا وكأنَّها سندريلا ومنتصفُ الليلِ عدوُّها، لا تقولُ إلـى أيـن ستذهبُ ومتـى سـتعودُ، وفي كلِّ مرَّةٍ تحـاولُ البحثَ عن عذرٍ آخرَ غير إرهاقِ العملِ... ولكنِّي كنتُ أعلمُ أنَّها تذهبُ له... أو يأتي لها هو، لا يهمُّ أيُّهما يقتربُ من الآخرِ ما دامَ أنَّهما سيجتمعنا، وسأظلُّ هنا وحدي أفكِّرُ بما سيفعلانهِ حتى ينتكشَ شعرُ رأسي غيرةً.

بـدأتِ الغيـرةُ تظهـرُ على نبرةِ صوتي وعتابـي لها على تركِها لـي وحيـداً تحتَ نـورِ القمر... تضحكُ على غيرتي تجاهها وعلى هـذا الانجـذابِ المدهشِ نحوَها... وتصبِّرُ قلبي بقولِها: «لا تحزنْ يا حبيبي... سأعوِّضُك عن هذا الغيابِ بعناقٍ يطوِّقُكَ حتى تنامَ»..

وأوفـتْ ديـالا بوعدِهـا حينما اختـارتْ بيروتَ مكانـاً لعناقنا، تواعدْنا على الالتقاءِ هناك، تواعدنا على أن نهربَ معاً، وكأنَّها لا تعرفُ إلا طريقَ الهروبِ لتنجوَ من حزنِ هذه الحياةِ..

التقينـا فـي مطـارِ الرحيلِ كالغربـاءِ، وما إن وصلنـا إلى بوابةِ الطائرةِ حتى تشابكتْ أيدينا وصارتْ أكتافُنا وسائداً ونظراتُنا غوايةً..

وصلنا إلى بيروتَ، ومكثنا في شـقَّةٍ صغيرةٍ في أحدِ الفنادقِ المطلَّةِ على زرقةِ مياهِ البحرِ حيث تحلِّقُ النوارسُ قريباً من شرفتها... بيروتُ المدينةُ الفاتنةُ احتضنتنا واحتضنت جنوننا وأشعلتْنا كعودي كبريتٍ... لا بيروتُ ولا بحرُها ولا نوراسُها منعوني من قضمِ شفاهِ ديالا، ولم تمانعْ ديالا حتى!

تلطَّخنا بطينِ الرذيلةِ وخضنا معاً معاركَ شرسةً في ميدانِ السريرِ، كُنَّا مراهقين في حبِّنا، نسعى لما يروي عطشَ أجسادِنا دون أن نبالي بالعواقبِ الوخيمةِ التي قد يحملُها لنا القدر، كنَّا مراهقين فعلاً في هذا الحبِّ...

وبعد ستَّةِ ليالٍ فقط انطفأت شموعُ الشهوةِ التي كانت تحرقُ صدورَنا بشمعِها وانقلب حالُنا إلى فتورٍ وبرودٍ جافٍّ يمزِّقُ شفاهَنا بالصمتِ..

كانَ حبُّنا أضحوكةً، كان عبثاً وشبقاً ورعونةً، ولأنَّ ما يأتي بسهولةٍ يرحلُ بسهولةٍ، رحلتُ أنا عن شفاهِ ديالا بعد القُبلةِ العاشرةِ... بعد المئة!

كان رحيلي متوقعاً، هي لم تضجرْ منه كثيراً، فقط أربكَها سرعةُ حلولِهِ وطريقةُ وداعِنا... لملمتُ ملابسي المتكدِّسةَ والمتشابكةَ بين ملابسِها، رصصتُها بإهمالٍ في حقيبتي وكأنَّني أعاقبُها على لهوها و على رائحةِ عطرِ ديالا الذي يعانقُها..

ارتديتُ معطفي وحملتُ حقيبتي وغادرتُ بيروتَ، بينما كانت ديالا تستحمُّ وفي استحمامِها دموعُ قهرٍ على حالها اختفت مع قطراتِ الماء التي تطهِّرُ جسدَها من ذنبي..

لم نتعانقْ لمرَّةٍ أخيرةٍ، ولم نصبِّرْ أنفسَنا بكلماتِ الوداعِ، كان حبُّنا عطلةً وانتهت بعد مللٍ وأسف..

* * *

(16)

جاءتْ تَحملُ الوردَ وتترنَّحُ
وردٌ يحملُ ورداً..
تتباهى بينَ الإناثِ وتتغنَّجُ
أُنثى أجملُ من أيِّ أُنثى..
تَغمِزُ بجفنِ عينِها وتتفنّنُ
بإسقاطِ ذكورِ رجلاً رجلاً..
تنتقِمُ بجمالِ خدِّها وتثأرُ
من رجُلٍ أحرقَها هجراً وبُعداً
غاوِيةُ الحسنِ والجمالِ تتعذَّبُ
من دقَّاتِ قلبٍ تدقُّ ألماً
وتذرفُ الدموعَ دماً ونبضاً..
مُترفةُ النعومةِ وأميرةُ الطفولةِ تتحسَّرُ
على قلبٍ يُحبُّهُ حُبّاً جمّاً..
على خائنٍ رحلَ وأدبرَ..

* * *

عـدتُ إلـى الرياض منكسـراً وخائباً، عـدتُ بعد صحوتي من

سكرةِ الحبِّ المزيَّفِ.. عدتّ بزيفٍ حادٍّ في ذاكرتي يجعلُ رأسي كرةً ثقيلةَ الحملِ على جسدي..

الخيانـةُ صفـةٌ لا تغـادرُ كلَّ عاشـقٍ إلا مَـن رحـمَ اللهُ... ولم يرحمْنـي اللـهُ ويجنبْنـي إيَّاها، الخيانةُ كالدمـاءِ الملوَّثةِ، تتغلغلُ في أجسادِنا، تغيِّرُ من تركيبنا، وندفعُ ثمنَها بصراخِ الضميرِ في داخلنا..

ظننتُ أنَّني سأنسى حنينَ مع أوَّلِ قُبلةٍ تجمعُني بديالا، ظننتُ أنَّها الحبُّ يُنسـى بالقبلاتِ وبعرقِ الأجسـادِ... ظننتُ أنَّها سترحلُ من قلبي ولن يتبقَّى أثرٌ لها في شوارعِهِ. ظننتُ وظننتُ وظننت... حتى خابَ ظنِّي حينما صرخَ قلبي باسـمِ حنين، معلناً عن اشـتياقهِ وحسرتهِ دونها...

وصلـتُ إلـى منزلـي في الرياضِ منهكاً من صراخِ قلبي ومن صداعِ ذاكرتي، ألقيتُ السلامَ وألفَ كذبةٍ على عائلتي عندما سألوني ماذا صنعتُ هناك في بيروتَ، ثم استأذنتُهم بالصعودِ لغرفتي لأريحَ جسدي المتضررِ من قُبلاتِ ديالا

وقبلَ أن تنامَ عيناي كتبتُ رسالةً لحنين:

«يا مَن اشـتقتُ لها كثيراً... يا مَن يفتقدُها قلبي كثيراً... لكِ أسفي يا حنيني على كلِّ ليالي الغيابِ، على نداءكِ الذي لم تسمعْهُ أذناي ولا قلبي.

سـامحيني... سـامحيني أيتُهـا الطيبةُ واقتربـي فإنَّ في صدري جرحٌ لن يبرى إلا بقربِكِ، وعلى خدّي دمعٌ لن يجفَّ إلا بمنديلكِ..

أعلـمُ أنَّنـي آلمتُكِ بما يكفي لئلا تعودي، وأعلمُ أنَّني أبكيتُكِ بما يكفي لئلا تشتاقي لي، وأعلمُ أنَّكِ لا تعلمين عن سببِ هجراني

وصدِّي المميت... ولكنَّ الدنيا يا دنياي تآمرتْ علينا ولم تشأْ أن تجمعَ شملنا..

أيَّتها البريئةُ كطفلةٍ عمرهُا دقيقة... لا تبكي... لا تحزني... أنا هنا الآن أنتظرُكِ... وسأنتظرُكِ إلى أن أنامَ وحيداً في غرفةٍ صغيرةٍ في باطنِ الأرضِ..

أحبُّكِ... هتان.»

ثمَّ راحتْ عيناي في سُباتٍ، كم تمنَّيتُ ألا أفيقَ بعدهُ..

* * *

أنحنُ مَن نجني على أنفسنا بالشتاتِ ثمَّ نلقي باللومِ على غيرِنا في محاولةٍ لتخفيفِ الألمِ على قلوبِنا؟ أنحنُ مَن نهلكُ أنفسَنا بالحزنِ والبكاءِ ثمَّ نقولُ: أن لولا فلان لما حزنَّا ولا بكينا؟ أنحنُ مَن نرهقُ قلوبَنا بالحبِّ ونجعلهُا تتكَّيفُ على صباحاتهِ ولياليهِ، ثم نهلعُ ونضجرُ من كلِّ صباحٍ ومساءٍ لا نرى فيهِ مَن نحبُّ؟ أنحنُ العشاقُ مَن نخونُ؟ أم أنَّ هناكَ أشخاصٌ آخرون يحركُون أجسادَنا وقلوبَنا في دقائقِ الخيانةِ؟ كيف للعاشقِ أن يخونَ ثم يعودُ طاهراً؟ كيف للعاشقِ أن يحبَّ... ولا يخونُ؟.

قساةٌ نحن معشرَ الرجالِ، نقسى على أرواحنا ونعلِّقُ قلوبَنا على حبالٍ كثيرةٍ، وكأنَّنا نعدمُها مراتٍ عديدةٍ...، قساةٌ لا نرحمُ صدورَنا ونحميها من كيِّ جمرِ الفراقِ، نحبُّ ونعشقُ وما إن يبدو هذا الحبُّ صعباً حتى نغيِّر اتجاهاتِ بوصلةِ الحبِّ لحبٍّ آخر أسهل..

نسيتُ نفسي، نسيتُ إلى أيِّ القلوبِ أنا أنتمي، عندما رحتُ

أعبُرُ في واحاتِ النساءِ وآكلُ من ثمراتِ نخلاتهنَّ، وأشربُ من مياهِ شفاهنَّ متناسياً أنَّني عابرٌ، ومهما طالتِ المسافاتُ بيني وبين وطني سأعودُ له يوماً غيرَ مبالٍ بما يبعدُني عنه..

ونسيتُ أنَّكِ وطني يا حنين... أنَّكِ انتمائي والأرضُ التي تتفتَّحُ على تربتها أزهاري بطهرٍ، ومهما ابتعدتُ عنكِ ستبقين دائماً في قلبي..

ولكنِّي منذُ أن خُلقتُ وأنا آتي متأخراً جدّاً، صبرَ والديَّ سبعَ سنينٍ لآتي، وانتظروا تسعةَ أشهرٍ لأخرجَ من بطنِ أمِّي، ولو أنَّها لم تسأمْ من حملي لبقيتُ هناكَ تسعةَ أشهرٍ أخرى... وكنتُ الأخيرَ في دفعتي حينما أنهيتُ المرحلةَ الثانويةَ، وفهمتُ متأخِّراً أن لا شيء يبقى على الدوامِ، وكنتُ أيضاً الأخيرَ الذي علمَ بموعدِ زواجِكِ!

قالتها جدَّتي وهي تخبرُني عمَّا حدثَ في غيابي، قالتها وهي تطيرُ في سماءِ الفرحِ: «أخيراً... أخيراً يا هتان، جاءَ النصيبُ المنتظرُ لابنةِ عمِّكَ... حنين!»، قالتها وهي تبشِّرُني بموعدِ هلاكي... قالتها وهي تترقَّبُ إشراقةَ سِنِّي من وراءِ شفاهي... قالتها ولم تدرِ أنَّها في تلكَ اللحظةِ قتلتْ ابنها ببشارةٍ مُرَّةٍ..

هكذا إذن... هكذا أعلنتِ الرحيلَ وطويتِ صحفَ الحبِّ كلَّها... هكذا اخترتِ طريقةَ ردِّ ثأركِ من غيابي، وردِّ دينِ حبِّكِ من وجداني..

عيناي اللتان دُهشتا من لونِ بؤرتي عينيكِ لم تستطعْ أن تصدقا هذا القولَ، لم تبكيا ولم تذرفا دموعاً، ولكنَّهما كادتا تخرجُان من مكانهما من شدَّةِ دهشتهما!

ويـداي اللتان تحسسـتا خدَّيكِ وعرفتـا معنى الملمسِ الحريرِ صارتا جافتين، وتسـاقطتِ الأظافرُ كأوراقِ الخريفِ متحسـرةً على رحيلِكِ..

صـارتْ كلُّ ذكـرى جمعتني بـكِ تعصفُ كالريحِ على مركبِ فكري، وكأنَّها لحظةُ الموتِ أسـترجعُ فيها أجملَ لحظاتِ حياتي، أتنفَّـسُ ببـطءٍ، الهـواءُ باردٌ في صدري... أطرافي لا تتحرَّكُ، شـللُ الرحيلِ أصابني..

«سـترحلين هكـذا؟ صبـراً أيَّتُهـا الأنثـى الماكـرةُ، صبـراً أيَّتُها الأنثى الحزينةُ... لا ترحلي عنِّي... لا تتركيني هنا وحدي، وربُّ الحُبِّ والحزنِ والبكاءِ، وربِّي وربِّكِ لا حياةَ لي دونكِ... أخطأتُ أنا... وعقابُكِ أقسـى من خطأي... سـتذهبين هكذا؟! وتظنِّين أنِّي سأدعُكِ تذهبين هكذا؟، أيَّتها الشقيةُ لا تشقيني ولا تدمريني... أنا الذي أعودُ لسـنِّ الطفولةِ بين ذراعيكِ، كيف تقدرين على هجرانِ طِفلِـكِ؟، أنـا الـذي أقـولُ كلامـاً لا يقوى على نطقِـهِ ثغرُكِ، كيف تقدرين على نسيانِ صوتِكِ؟!

آهٍ يا حنين... آهٍ يا حبيبتي..

أتقتلينـني بصـكٍّ شـرعيٍّ يبيـح قلبكِ لرجلٍ غيـري؟ أتقتلينني باسـمِ الديـنِ وتحرميـن حبِّي لكِ وترحلين للطهـارةِ، وأبقى أنا هنا ألطِّـخُ وجهـي بالطينِ ألماً على رحيلكِ؟، أخبريني ماذا عسـاي أن أفعلَ لتعودي لرشدِكِ... أخبريني ماذا عساي أن أفعلَ لتعودي عن قـرارِكِ وتركضيـن باكيـةً لصـدري... أيُّ قصائدِ الرجاءِ سـتعجلُكِ تعودين لي... أيُّ كلماتِ الحبِّ وألحانُ الحزنِ أعزفُها لتعودي..

أرَجـوكِ عـودي، أنا بحاجةٍ كبيرةٍ إليكِ والاحتياجُ يا محبوبتي ذلٌّ..

عاجـزٌ أنـا عـن كتابـةِ الحـزنِ الذي يحتـلُّ عينـيَّ وصدري... عاجـزٌ أنـا عـن تصديـقِ كذبةِ رحيلـكِ... عاجزٌ عن كلِّ شـأنٍ آخر غير شأنكِ... أهناك صفةٌ أقبحُ من العجزِ؟

يـا مَـن ابتـدأ عمري معها... يا مَن أنجبتني من رحمِ عينيها... رفقاً بصاحبكِ... رفقاً بعزيزِ قومٍ زلَّ!

أقـفُ الآنَ علـى حـدودكِ وحيداً، أرجوكِ افتحـي بوابةَ قلبكِ ودعيني أعودُ لوطني وعرشي الذي سيُسلبُ برضاكِ مني.. هتان..»

وانتظـرتُ جوابـاً منـكِ، انتظرتهُ بشـغفٍ مثلما انتظرتُ جوابَ الحـبِّ منـكِ فـي أوّلِ ليلةٍ جمعتْنا على مائدةِ العشـقِ، كنتُ مشـتّتاً لا أدري مـاذا أفعـلُ بحالـي! أأبكيـكِ أم أنتظرُ عـلَّ الانتظارَ يقضى برجوعـكِ؟! لا، ليـس رجوعـاً... أنـتِ لـم تغـادري قلبـي للحظةٍ لترجعي... بل هو وصلٌ يحيي قلبي الواقفَ على هاويةِ اللاشعور..

* * *

(17)

يا حبيبتي..
في مساءٍ مُخمليٍّ
ستكونينَ أنتِ أجملُ أقمارِ السماءِ
ستكونينَ عروسةً
يحضنُها الفستانُ الأبيضُ ويقبِّلُ يديها الياسمينُ..
ستكونينَ الوردةَ البيضاءَ التي
يتمايلُ بينَ أوراقِها الغنجُ والدلعُ
ستكونينَ وردةً لطالما جذبَني ريحانُها
ولطالما تمنَّيتُ استنشاقَ عِطرِها

* * *

في ذلكَ المساءِ يا جميلةُ
ستغارُ منكِ قبيلةٌ!
كيف أخذتِ جمالَ نسائِها العتيقِ البدوي؟
كيف فتنتِ رِجالَها البواسلَ الشُجعان بأهدابَ عينيكِ؟

* * *

في ذلكَ المساءِ يا رقيقة

سينثرُ الوردُ حولَكِ
وستتعالى الدعواتُ لكِ
سيغنى باسمِكِ
وسترقصُ الفتياتُ فرحاً بكِ

* * *

في ذلكَ المساءِ يا شهيَّةٌ
سيخجلُ خدّاكِ كثيراً
خداكِ اللذانِ تمنَّيتُ تقبيلُهما كثيراً
وسيبتسمُ ثغرُكِ كثيراً
ثغرُكِ الذي تمنَّيتُ تذوقَهُ كثيراً

* * *

في ذلكَ المساءُ يا لذيذة
ستمشين على خجلٍ
خطوةٌ تلوَ الخطوةِ
وعلى مسرحٍ مملوءٍ بالوردِ
ستجلسين مع رجلٍ ... غيري!

* * *

في ذلكَ المساءِ يا حبيبتي
رجلٌ سعيدٌ موفَّقٌ محظوظٌ
أكرههُ أنا كثيراً كثيراً
رجلٌ غدرَ بي..

رجلٌ تغاضى عن كلِّ النساءِ
وأختارُكِ أنتِ يا كلَّ نِسائي
رجلٌ أخذَكِ منِّي
وتركني وحيداً دونَكِ

* * *

في ذلكَ المساءِ يا ملكتي
سيملِكُكِ غيري
وسينفطرُ قلبي
وسأنقسمُ لنصفين
نصفٌ سعيدٌ جدّاً لكِ
ونصفٌ حزينٌ جدّاً دونَكِ
نصفٌ يتلو الدعواتِ لعينيكِ
ونصفٌ يتلو اللعناتِ على مَن أخذَكِ منِّي
وما بينَ انقسامي ونِصفاي
سأموتُ أنا سأموتُ قهراً أنا
وفي موتي
حبٌّ خذلَ منكِ يا ... محبوبتي!

يحزنني أنّي أحاولُ الآن كتابةَ نهايةٍ تليقُ بكِ، يحزنني أنّي أكتبُ نهايةَ قصَّةِ عشقِنا العذبةِ وأنّي بعدما أنتهي من كتابتها سأعودُ لأكتبَكِ مجدداً، فمنذُ أن رحلتِ وأنا لا أعرفُ غيرَ الكتابةِ طريقاً أستقلُّهُ لأهوِّنَ على روحي من وطئةِ الحزنِ..

هـل هـذهِ النهايـةُ التـي كنَّا نطمـحُ لها؟، نهايـةٌ لا تجمعُنا في بيـتٍ صغيـرٍ ومـع أطفالٍ يندهون علينـا بأمِّي وأبي؟، نهايةٌ لا تمطرُ فيهـا السـماءُ لتختبئـي تحـتَ مظلَّتـي... نهايـةٌ لا بردَ فيهـا لتقتربي وتلتصقـي بـي، أنـا معطفُكِ الحزينُ... نهايـةٌ تجعلُني أتمنَّى لو أنِّي خُلقتُ جماداً لا يعرفُ معنى المشاعرِ الحزينةِ المتراكمةِ في صوتي ولا يأبـهُ بتقلبـاتِ الزمـنِ، يظلُّ واقفاً صامداً أمـامَ الرياحِ حتى وإن أكلتْ أجزاءَهُ

النسـيانُ، لصٌّ ماكرٌ في اختيارِ ضحاياهُ، لا يسـرقُ منكَ مالاً تريدهُ أن يرحلَ، ويختارُ تلكَ الذكرى التي تريدُها أن تبقى... يسرقُ لحظاتِ الفرحِ منكَ، ويوهمُكَ أنَّك لم تذقْ حلو السعادةِ طوالَ أيامِ حياتِكَ، ويتجاهلُ أطيافَ الحزنِ التي ترهقُكَ بمشاكساتها وبقفزها أمامَك..

أدهشـتْني قسـوتُكَ التـي لـم أعهدْهـا منـك من قبل، أدهشـتْني إفلاتُكِ المفاجئُ لحبلِ الحبِّ بينَنا، ذاكَ الذي شددتهُ كثيراً بالرجاءِ وبالندمِ على كلِّ ليالي الغيابِ حتى أمسكتُ طرفَهُ الآخر الذي كان خالياً منكِ..

تكبرُ في صدري صحراءُ غيابكِ وتمتدُّ من يساري إلى يميني بـلا غيومٍ تبشِّـرُ بهطولِكِ، تبشِّـرُ بعودتكِ، حتـى وإن طال انتظاري لمطركِ..

قرارُ رحيلكِ كان ظالماً وقاسياً، قرارٌ لا استئنافَ فيهِ... وبيدكِ اعتمدتِ ورقةَ ضياعي بأربعةِ شهودٍ يؤكِّدون أنَّكِ أنتِ يا محبوبتي أصبحـتِ حـلالاً علـى غيـري، وحراماً على الحبِّ الـذي أكنُّه لكِ

في فؤادي..

إنَّني مريضٌ بكِ... مريضٌ يدركُ أنَّ الشفاءَ منكِ صعبٌ جداً، بل هو مستحيلٌ... فما أنجبتْهُ سنينُ بعدِكِ من تعلُّقٍ بالماضي يجعلُ هـذا القلـبَ يـدركُ أنَّ دواءَهُ هو عودتُكِ، والتي هي أيضاً أصبحت مسـتحيلةً... فكيـف تعوديـن وأنـتِ الآن أمٌّ أرضعـتْ طفلينِ، وأنا عاشقٌ أنجبَ حنيناً!

هكذا هي دنيانا يا حنيني، لم تعطِنا ما نريدُ، ولم تحاولْ كسبَ ودِّنـا بلقـاءٍ آخـر غير ذلك الذي جمعَني في ليلةِ زفافِكِ... في ليلةِ اعكتافي على رصيفِ مغادرتي النهائيةِ من حياتكِ... هل تذكرين ما حدثَ تلكَ الليلة؟، كُنتِ تمشين متأبطةً ذراعَ ذلك الأبكم... فرحةً بهِ وكأنَّهُ ذاك الفارسُ الذي حلمتِ بهِ كثيراً، و كنتُ أتأمَّلُ مشـهدَ ضياعـي مـن مسـافةِ عشـرةِ أقدامٍ ومئـةِ دمعةٍ وألـفِ آهٍ... ماذا لـو أنّـي اقتربـتُ منكما؟، ماذا لـو أنّي هنَّأتُكما بهذا المجدِ وصافحتُكِ للمرَّةِ الأخيرةِ، هل سأعود ويداي في مكانها؟، هل سيعودُ جسدي وروحي لازالتْ محبوسـةً بهِ؟... ها أنا أنظرُ إليك من بعيدٍ، أراكِ تجرِّين وراءَكِ فستانَكِ الأبيضَ، وأشعرُ بأنَّكِ تجرِّين صدري العاري على ترابِ القهرِ، ولحقتُ بكُما إلى هناك، إلى ذلك المكانِ الذي سيعلنُ رسمياً أنَّكما زوجان... وظللتُ هناك وحدي في عتمةِ الليلِ أسـتمعُ لشـيطاني الذي يسـترقُ النظرَ لنافذتكِ، فيعودُ ويخبرُني أنَّ ذاك الأبكـمَ المحظـوظَ طمسَ نقوشَ شـفاهي علـى رقبتِكِ وبدَّلها بألوانٍ ممزوجةٍ بالأحمرِ والزهريِّ.

هكذا كانَ قدرُنا، أن أحبَّكِ ثم أراكِ ترحلين أمامي بالفسـتانِ

الأبيـض الـذي ارتديتـهِ لرجـلٍ آخر غيري، رحلـتِ وظللتُ أنا هنا وحـدي أردمُ حفـرةَ حبِّـي لكِ التي تتسـعُ كلَّما تليـتُ فيها ذكراكِ، وتلتهمني أنا الذي لا يعرفُ كيف ينساكِ..

أربعـةُ سـنينٍ مـن الفـراقِ ولاأزال أذكـرُكِ... تبّاً لذاكرتـي ما أحقرَهـا، تبّاً لهـا مـا تـزالُ تحتفـظُ بكِ علـى جدارنهـا وتقيكِ من أعاصيرِ النسـيانِ، تتمسَّـكُ بكِ وكأنَّكِ أجملُ لحظاتها وآخرُ دقائق سعادتها..

أربعةُ سـنينٍ من الفراقِ، لم أمتْ فيها، بل عشـتُ بقلبٍ ميِّتٍ وخائـبٍ مـن معاني الحبِّ، وأنتِ سـارتْ حياتُـكِ على نحوٍ جيدٍ، فقـد أخبرونـي أنَّـكِ أنجبـتِ وأنَّ طفلتيكِ وُلدَتا بصوتـكِ الضائعِ، وأنَّهـن شـتَّتنَ الهدوءَ الذي يسـكنُ زوايا منزلـكِ بصوتهنّ العذبِ، أخبروني أنِّي أُهلِكُ نفسي بالوقوفِ على أطلالكِ، ويجبُ عليَّ أن أنساكِ وأن أطرقَ أبوابَ الفرحِ دونَكِ وأنَّكِ لم تستحقِّي حبِّي، ولو أنَّكِ كنتِ أهلاً لهُ لـمَا يأسـتِ وقطعتِ صلةَ الحبِّ بيني وبينكِ... أخبروني أنَّني سـأموتُ وحيداً إن لم أنسـاكِ، وأنَّ حياتي فانيةٌ ولا يجـدرُ بهـا أن تنقضـي وأنا متمسِّـكٌ بزمامِ الماضـي... ولم يعلموا أنَّكِ فتاةٌ لا يمكنُ أن تُنسى... وأنَّ ما كانَ بينَنا أطهرُ من أن يُنسى..

آهٍ لو أنَّكِ تعودين وتعيدين لي سنيني الضائعةَ دونَكِ... آهٍ لو أنَّني أمتلكُ آلةَ الزمنِ فأعودُ بها كلَّما ضاقتِ السماءُ في عينيَّ إلى لحظـةِ قُبلتنـا الأولـى... آهٍ لـو أنَّني كنتُ أعلمُ الغيـبَ لـمَا أحببتُ ولـمَا أبحرتُ في بحرِ العشقِ الغدَّارِ..

صدِّقينـي يـا حنينـي، أتعبني الحنينُ إليـكِ... حاضرةٌ أنتِ في

أحلامـي... أحلامـي تلـك التي صارتْ كوابيـسَ حينما تأتين فيها، فأصحـو ولا ألقـاكِ فـي واقعي، وأعلمُ أنَّـكِ هناك نائمةٌ في حضنٍ آخـر كان أجـدرَ بـكِ منّـي، منذُ أول أيـامِ حُبِّنا وأنا أعلمُ جيداً أنَّكِ نقطـةُ التحـوّلِ التي انتظرتُها سـنيناً طويلة، وأنَّـكِ واحدتي وأنَّ من بعدكِ أناثٌ لا يسمنَّ ولا يغنينَ من جوعٍ.!

يشتدُّ حزني كلَّما ذكرتُ أنَّ مجتمعنا كلَّهُ وقفَ ضدَّنا صارخاً: «لا يليقُ برجلٍ سليمٍ أن يرتبطَ بأنثى ناقصةٍ»، وكأنَّهُ يضعُ لنا معاييرَ للحبِّ لا يجدرُ أن نُخِلَّ بها؛ لننالَ تبريكاتهِ بهذا الحبِّ... يحزنني أنَّ امـرأةً مثلـكِ طاغيـةُ الجمـالِ وحسـنةُ الصفـاتِ لا تملكُ فرصاً كثيـرةً؛ لتحيـا كمـا تريدُ ومع مَـن تريدُ، وتُجبرُ على أن تكونَ لـمَن هم على شاكِلتها... أجرموا في حقِّنا يا حبيبتي أبعدونا عن بعضِنا ببندِ «لا يصلحُ» أو «لا يليقُ»، وتجاهلوا أنَّنا معاً نستطيعُ أن نتخطَّى عقبةَ الصوتِ؛ لأكونَ لكِ صوتكِ وتكوني لي صمتي..

اشتقتُ لكِ... أتعلمين؟ صهرني الحنينُ لكِ... أتدركين؟

ماتـتْ زهـورُ مدينتـي فـي يـديَّ، بعدمـا جفَّـت خطوطُها من وصلكِ... ذبلتْ حدائقُ الكلامِ في صدري وأصبحَ الصمتُ أجملَ صفاتـي، يظنُّـهُ النـاسُ حكمـةً وهيبةً، وأعرفُ أنَّـهُ حديثٌ طويلٌ لا يستحقُّ أن يُحكى إلا لكِ..

تثيرُ نجومُ الليلِ شهوتي للكتابةِ إليكِ، تسقطُ نجمةٌ من السماءِ لتنيرَ لي سطورَ دفتري، وكلَّما غادرتني واحدةٌ جاءتْ نجمةٌ أخرى تبتسمُ بخجلٍ وتجلسُ على كتفي، فأغرقُ أنا بكلماتي وبهذياني... وأدركـتُ مـع كلِّ سـطرٍ أكتبـهُ لـكِ، أنَّـكِ المعادلـةُ الأصعـبُ في

حياتي، أنَّكِ المرحلةُ الأجملُ في مراحلِ عمري، وأنَّكِ واحدتي.. واحدتي.. واحدتي!

ستبقى هذه الأوراقُ غيرَ مكتملةٍ، ينقصُها الجزءُ الآخر... ينقصُها أوراقُكِ يا حنيني... ولا أدري ماذا سيحلُّ بهذه الأوراقِ؟، أين سأخبِّئها، ومتى سأُظهرُها، ومَن سيقرأُها؟... لا يهمُّني مصيرَ هذه الأوراقِ، ولكن إذا مرَّ يومٌ ووصلتْ أوراقي ليديكِ، فأرجوكِ لا تقرئيها... لا تقرئي حزني؛ لكي لا تحزنَ عيناكِ..

وإنِّي أحبُّـــ ....

(جاءَ صوتُ جرسِ البابِ؛ ليقتلعَ الحرفَ الأخيرَ من كلمةِ الحبِّ، فتحُ هتان بابَ شقَّتهِ التي اتخذَها ملجأً له عندما يكتبُ لحنين... أو عندما يلتقي بفتاةٍ أخرى)!

فُتِح البابُ... وقال هتان:

أهلاً حبيبتي... تأخَّرتِ هذه المرَّة.. يا ديالا!

* * *

انتهت

16 أيـــــار 2013

سيدني